رواية

الهجرة الى المقابر

عمار السروري



Rewayah
رواية

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

لندن

ترخيص رقم: 6820617

العنوان: Address:

Dar-Rewayah limited

104 Queensway

London W22RR U.K

Website: www.rewayah.net

E-Mail: info@rewayah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء...

إلى الشعب العربي الأحوازي ...

إلى روح أمي رحمها الله. سلامٌ عليكِ في قبركِ يا فقيدة قلبي ...

إليك أنت عزيزي القارئ ...

أهدي إليكم جميعاً هذا العمل ...

فهرس المحتويات

يا رب .. يا رب

خذني إلى أسفل السافلين،

شريطة أن لا أجد عربياً هناك،،

أنا لست بحاجة لجنة الفردوس،

لأني وليد الحب،،

فجنة حور العين والغلمان هدية للعرب،،

مصطفى بادكوبيه

(شاعر إيران العظيم-هكذا يلقبونه)

1

مدرستي فارسية

أفقت من نومي في منتصف إحدى الليالي المقمرة. البيت مظلم، والجو ساكن، وعواء كلب كنت اسمعه من مكان بعيد.

كان إجباري من قبل أمي للخلود إلى النوم مبكراً من أجل أن أستعد لأول يوم دراسي هو السبب آنذاك في إفاقتي.

لحظتها. وأنا أغالب نفسي لأجل أن أعود إلى النوم. سمعت خطوات تتحرك، وأحسست بشيء يدخل الغرفة المفتوح بابها. حدقت لحظة في الظلام المحيط بي، لكني لم أتمكن من تمييز شيء، فأسرعت أغْمِضُ عينيَّ والخوف يهز أوصالي كما يهز الرعد قلوب البشر في الساعات الممطرة. خفق قلبي وتيبست في مكاني متسائلاً في ذُعر:

- هل هو لص؟ لكن ماذا سيجد اللص في بيتنا أصلا؟

زادت ضربات قلبي قوة في دقاتها، وضاق نَفَسي عندما قادني خيالي لاعتقاد أن عفريتاً هو من يتجول في أرجاء البيت. بدأت

أصكّ على أسناني محاولاً إيقاف ارتعاشها الذي أحدثه الذعر، وحاولت آنذاك أن أصرخ وأستنجد بأبي وأخي النائمين لكني عجزت عن ذلك. وكأن هناك من عقد لساني عن الحركة.

فتحت عينيَّ شيئاً قليلاً بحذر عَلّي أتمكن من تمييز شيء. فرأيت ظلاً يخطو خطواته ببطء واحتراس وهدوء شديد، متوجهاً ناحية فراش أخي (محمد)، الذي يبعد عني مترين تقريباً. وقتها فقط -عندما رأيت فراشه فارغاً- سكن خوفي وتلاشى بعيداً كما يتلاشى الدُخان مختفياً في الفضاء الشاسع.

- أين كان ياترى؟

جلس بجانب فراشه على هدوء مطبق، ولبث يخفي شيئاً في داخله. لم أتحرك أو أهمس بشفةٍ، فقد أخفيت استيقاظي متستراً بالظلام. وبقيت كما أنا متسمراً على فراشي القطني، أرقبه بصمت دون أن يعلم.

بعد أن انتهى، استلقى على فراشه كجثة هامدة. وسرعان ما غط في نوم عميق بان من صوت شخيره العالي.

غزا الفضول رأسي الصغير ففكرت وتساءلت:

- أين كان يا ترى؟

- وماذا كان يفعل؟

- ولِمَ كان يمشي بهدوء وحذر، وكأنه لص يخاف من انكشاف أمره؟

- وما هذه الأشياء التي أخفاها؟

زار النعاس عينيَّ وأنا أفكر، فكحل النوم أجفاني دون أن أعيَ ذلك. وفجأة لم أشعر إلا بصوت أمي يناديني على عجل:

- سجاد.....سجاد. انهض، ليس جيداً أن تتأخر عن أول يوم دراسي.

شعرت أني أسمع صوتها من مكان بعيد، بعيدٍ جداً. أكملَتْ قائلة بتذمر:

- نمتَ مبكراً ليلة البارحة. ما الذي يجعلك مستغرقاً في النوم حتى الآن؟

لم أتمكن من فتح عينيَّ المليئتين بالرقاد. حاولتُ ذلك، لكن رغبتي في النوم كانت أقوى، سحره يداعب عينيَّ بلذة غامرة، فأبقيتهما مغلقتين كما هما. وشعرت أن صوتاً آخر غير صوت أمي المنزعج أسمعه يقول لي في خيالي: لا تستيقظ.

كان أقوى تأثيراً من صوتها المتذمر، الذي تجاهلته وواصلت نومي دون أن أبالي به وبنغمة استيائه التي كانت تتزايد بين فينة وأخرى.

حملتني بين ذراعيها، واتجهت بي نحو المطبخ، فشعرت أن جسدي يسبح في الهواء كريشة نعامة. بلت يدها بقليل من الماء ومررتها بلطف على وجهي، فطفقتُ أفتح عينيَّ الصغيرتين ببطء وتكاسل، عندئذ، رأيت أمامي ابتسامة قمرية، مشرقة تنبعث من وجهها الملائكي.

- انشط يا كسول زمانك.

قالت لي هذا وشرعت بتقبيلي ومضاحكتي، وعيناها البراقتان تشعان نحوي بحنين فياض. ثم وضعتني بجانب والدي الذي كان جالساً متكئاً بزاوية الغرفة. يقرأ في أحد كتبه الأدبية العربية بصوت خافت أسمعه. يقرأ ويرقب أخي السارح الناعس بعينين رانيتين.

كان النوم يتطاير من عيني أخي ومن تثاؤبه المتكرر. استيقظ المسكين قبلي. يجب أن يذهب إلى عمله في دكان بيع المواد الزراعية دون تأخير. فهو من يملك مفاتيح الدكان.

كان شارداً، مثبتاً عينيه ناحية فراغ في وسط الغرفة مع استمرار تضيقهما واتساعهما بين حين وآخر. مما دل على أنه يغوص سابحاً في تفكير عميق، عميقٍ جداً.

من شدة النعاس الساكن في عينيه. فالغائب الحاضر بيننا، لم يجب أمي عندما حدثته إلا بعد أن اقتربت منه وهزته من كتفه. اندهشتْ منه وسألته بحيرة:

- ما بك؟

انتبه متفاجئاً، وأجابها مسرعاً بتلبك:

- آآآ. لا شيء، سرحت فقط.

❖❖❖❖❖

مدرستي لم تكن بعيدة، فبمقدوري الذهاب إليها بمفردي، رغم ذلك، قرر أخي اصطحابي معه في طريقه إلى عمله. وضعت لي أمي كسرة خبز في حقيبتي المدرسية المتواضعة بعد أن لفتها بقطعة قماش بيضاء نظيفة. ثم خرجتُ من البيت مرتدياً زيي المدرسي، أسير نحو المدرسة مع أخي الشارد الناعس، الناقم على العيش في هذه الدنيا. فهو يتأفف دائماً. يتأفف من كل شيء في هذه الحياة التي ينظر لها كلوحة سوداء بتفاصيل شؤم، وملامح كئيبة.

لم أكن استوعب ألوان البؤس التي تفرض نفسها في رسم حياة مظلمة لبعض البشر. تقول أمي متحسرةً عن أخي، عندما تنظر إليه وتسمع تذمراته المتكررة إنه كان طموحاً ومتفائلاً والآن ارتدى ثوب الإحباط مكرهاً، ويحق له ذلك كما أفادت بنغمة صوت مستسلمة.

قبل أربعة أعوام اجتاز أخي دراسة المرحلة الثانوية بتفوق، ورغم ذلك، فالتعليم الجامعي محرمٌ عليه، وعلى من هم في شاكلته

من الشباب الذين ينتمون لأسرة لها ما لأسرتنا من وقائع تمردية نفسها أو بعضها. فشروط السلطات، الغريبة والتعجيزية لا تتوافق مع أفراد أسرتنا البائسين. فهم يريدون طالباً مفصلاً على هواهم الرجعي والعنصري. ينتمي لمذهبهم، ويؤمن بولاية فقيههم. أو يكون له أقرباء شاركوا بالحرب ضد (العراق). والأهم من ذلك، أن يكون سجله وسجل أهله نظيفاً.

المخابرات تعلم كل شيء كما قال أبي. فهم يبحثون ويحققون عن الطالب من الجد الثاني والثالث، وأحياناً من الجد الرابع أيضاً.

كنت أسير معه ببطء وبخطوات فيها شيء من الخوف والتردد، فيجرني إلى الأمام بيده القابضة على يدي مستغرباً، ويرمقني بعيون يملؤها الاحتدام. كانت المدرسة ترعبني وتهز أوصالي كمسٍّ كهربائي كلما فكرت فيها. فالمعلمون الفرس وطلاب المستوطنين الفرس أكثر ما يخيفني منها.

مرة سمعت أخي يحدث أبي عن أحد زملائه أيام دراسته. قال عنه: إنه تم ضربه من قبل معلم فارسي بأحد الكراسي على رأسه حتى سقط مُغمىً عليه وظنّوا أنه مات.

قال أيضاً، في مناسبة أخرى، إن معلماً فارسياً آخر، كسر ذراع أحد الطلاب العرب لكتابته على السبورة كلمة عربية. وما كان يتناقله الأولاد في حارتنا عمّا يحدث للطلاب العرب من مآسٍ جعل قلبي يضطرب في ألم، فتمنيت العودة إلى البيت مع كل خطوة

أخطوها نحو المدرسة، وتمنيت في خيالي الواسع ألا نصل إليها أبداً.

سألت أخي بصوت ممزوج بخوف:

- أهناك أساتذة عرب؟

- الفرس أكثر.

- هل سيضربونني؟

- أجل.

اقلقني. تمنيت أني لم أسأله. غريباً معي هو اليوم. يبدو أن مزاجه السيء، والمشحون بما يزعجه جعله يجيب علي بهذا الطريقة الجافة.

- وإن لم أفعل شيئاً، هل سيضربونني؟

- ربما.

توقفت عن السير. زاد خوفي، وامتلأت عيناي متوهجة بالدموع. خفضت رأسي، وخاطبته خائفاً:

- لا أريد أن اذهب، أريد العودة إلى البيت.

حملني بهدوء وواصل سيره في الطريق المؤدي إلى المدرسة، وقال لي بنبرة صوت هادفة:

- هذا ما يسعون إليه. بث الرعب بين أوساط الطلاب العرب كي ينفروا من التعليم. كن شجاعاً، ولا تخف.

لم تنفع كلماته الناشفة والباردة معي، فمشيت معه مجبراً، مستسلماً لقلة حيلتي. أوصلني إلى باب المدرسة، وعندها فقط أحسست أني اختنق، وشعرت أن الدنيا تدور بي.

- ها نحن قد وصلنا. قل بسم الله وادخل.

وضعني على الأرض في عجل، وبقي واقفاً يرقبني حتى تأكد من دخولي ثم انصرف. وقتها مشيت إلى الداخل بقدمين مثقلتين، اجر نفسي بهما غصباً، وأغالب بدني الذي يسعى بقوة لمغادرة المكان، والعودة إلى البيت.

❖❖❖❖❖

في صفي الدراسي اخترت لي كرسياً في المقدمة وجلست عليه. كنت محظوظاً في ذلك، فالكراسي المتواجدة لم تكن تكفي إلا لنصف العدد تقريباً، والنصف الأخر افترش الأرض.

قَلّبْتُ بصري متأملاً الصف ومن فيه، فرأيت على يسار السبورة السوداء، صورتين كبيرتين معلقتين، لعجوزين مختلفين ومخيفين. كنت قد رأيت صور هذين الرجلين المرعبين في أماكن عدة، إما على التلفزيون أو ملصقة في الشوارع. ولطالما أرعبتني صور هذه الوجوه.

كانت الصورة الأولى، لرجل عجوز له ملامح قاسية وناقمة. يرتدي عمامة سوداء وعباءة سوداء أيضاً. يملك لحية بيضاء، وشعر حاجبيه أسود وكثيف أخفى جزءاً من عينيه فجعله أكثر رعباً.

لم تختلف الصورة الأخرى عن الأولى كثيراً، إلا أنها لعجوز آخر. مرتدياً الملابس نفسها باللون الأسود ذاته. لحيته بيضاء، يتخللها بعض السواد. وشعر حاجبيه ابيض وكثيف أيضاً.

عرفت فيما بعد، أن الصورة الأولى لروح الله الخميني، المرشد الأعلى للثورة الإسلامية الإيرانية. والصورة الأخرى لعلي خامنئي المرشد الثاني للثورة الإسلامية الإيرانية.

وأنا جالس في صمت، سابحاً أتفكر وأتأمل رعب الوجوه على الصور. دخل علينا رجل بهدوء قاتل (كان معلمنا). وزع نظرات ساخطة على معظم الطلاب. لم يعجبه وضعنا العشوائي، فاخذ وقتاً طويلاً يحملق فينا. ويفحصنا بنظرات شاملةٍ يملؤها الكثير من الرعب والنفور. ثم بدأ يهرف بالفارسية، فوقف الطلبة الفرس. ووقفت معهم. لم يقف الطلاب العرب يومها. ظلوا في أماكنهم جالسين، يحدقون بحيرة وغرابة. فهم لم يفهموا شيئاً مما قال، ولا أنا كذلك.

وقوفي كان حظي الثاني بعد حظ حصولي على كرسي اجلس عليه. فقد تحرك المعلم بحنق وغضب، وبدأ يجر الطلاب الجالسين من آذانهم، ويوقفهم بهذه الطريقة القاسية الواحد تلو الآخر.

كان سريعاً ويتحرك بشكل هستيري مخيف. يقفز من طالب إلى آخر، ولسانه يتقلب غاضباً بكلمات وعبارات لم أفهم منها إلا نبرة التحقير، التي كانت مرسومة بوضوح على عينيه وتقاسيم وجهه البغيض.

كان يعلق بعضهم في الهواء قارصاً الواحد منهم في كلتا أذنيه. والمساكين تتخبط أرجلهم في الهواء وتتعالى أصواتهم بالبكاء. أرعبني المعلّم وما يفعله فانفجرت باكياً مع من بكى، وبكى بعض الطلبة الفرس أيضاً. هكذا امتلأ الصف بالصياح والبكاء الذي لم يتوقف سريعاً.

صارت آذان الطلاب العرب حمراء، وبعض الآذان خرج منها الدم. والمساكين ظلوا يفركون آذانهم بسرعة محاولين تخفيف الألم وإبعاده. وأصحاب الآذان التي خرج منها الدم كانوا يبكون متشنجين بفزع واضح. بعدها وقف المعلم أمام السبورة مستاءً حانقاً، وموزعاً علينا نظرات غاضبة امتزجت باحتقار بائن. أحسست في تلك اللحظات، أنه يتمنى لو حملت يده الماكرة عصا، فيضربنا بها ليسكتنا.

وقفته البغيضة لم تدم طويلاً، حيث خرج من الصف مستاءً، وشفتاه الكبيرتان تثرثران بنغمة غاضبة. تمنيت في خيالي أن لا يعود. أن يختفي من هذا الوجود، وكأنه لا شيء فيه ولا حتى قطعة من الجماد.

يومها مضت فترة قصيرة على خروج المعلم البغيض، ليدخل علينا معلم آخر. تحدث معنا بالعربية بهدوء ووجهه راسمٌ إبتسامةً فاترة، وبدأ ينظم الطلاب الجالسين على الأرض. تعامل معنا بلطف، فتمنيت أن يكون هو معلمنا بدلاً من المسخ الذي خرج غاضباً. وهو منهمكٌ في تنظيمنا، نظر إليَّ وسألني:

- أنت عربي؟

- أجل.

أخذني وأجلسني على الأرض في مؤخرة الصف. يبدو أن هيئتي أوحت له بذلك. غضبتُ عليه في خيالي واحتقرته. البغيض سرق مني حظي الأول الذي فرحت به في هذه المدرسة الممقوتة. عمل وقتها على تغيير تركيبتنا. حيث أصبح الطلبة الفرس هم فقط من يجلسون على الكراسي.

في المدرسة يمنع علينا الحديث بالعربية أثناء الحصص. التعليمات تفيد أن نلتزم الصمت حتى نجيد الفارسية. كنت اذهب وأعود منها بعقل فارغ، لا يملؤه شيء ولا حتى كلمة. لذلك في البيت، كان أخي أستاذي. يعلمني الفارسية وقواعد اللغة العربية معها بجهد مكثف كي أتجاوز شبح البلادة الذي كان يتقمصني في تلك المرحلة.

❖❖❖❖❖

وجدتني وحيداً. أبي وأخي خارج البيت، وأمي في المطبخ تدبر شؤونه. تذكرت فراش أخي. غزاني فضول شديد. قاومته لكنه غلبني. فتوجهت إلى فراشه متسللاً، أمشي على أربع، مستغلا بذلك غياب الجميع. ثم باشرت على عجل أبحث عن الشيء المخفي بنفسٍ مضطربة.

بعد لحظات من البحث وجدته. كانت ثلاثة أعلام أحوازية، ملفوفة داخل علم رابع. تعجبت من ذلك، فلم يكن شيئاً محرزاً بالنسبة لي. طفقتُ أبحث ثانية

علّي أجد شيئاً آخر، لكني لم أجد. الأعلام الأحوازية كانت كل ما ألفيته.

آنذاك فاجأتني أمي بحضورها، حيث فزتْ مذعورة، وسألتني بغضب امتزج بفزع ورعب:

- من أين أتيت بهذه الأشياء؟

ارتبكت. فقد أخافتني نظراتها المفزوعة وتقاسيم وجهها التي امتلأت بتعابير قاسية.

أجبتها بتلبك:

- من داخل فراش (محمد).

- من وضعها هناك؟

- محمد.

أخبرتها بكل ما رأيت في تلك الليلة بصوت مرتعش. جثت على ركبتيها أمامي، وشرعت تبكي وتضرب نفسها بكفيها على رأسها وخديها. وكأن إنساناً عزيزاً عليها قد أتاه الموت وأخذه من هذه الحياة بعيداً عنها. أرعبني فعلها فشرعت أبكي معها بخوف وقلق دون أن أفهم ما يحدث وقتها.

عرفتُ فيما بعد: أن السلطات نفذت حكم الإعدام بين العامة على أخويها، خالي (قاسم) وخالي (مجيد). كان هذا قبل ولادتي بعامين تقريباً. انتماؤهما لأحد المنظمات السرية المطالبة بتحرير (الأحواز) كان السبب في ذلك. ويبدو أن أخي بدأ يسير في هذا الطريق، الذي سيجرفه بقوة إلى الموت أمام الناس كما جرف أخوالي من قبل.

عندما توقفت أمي عن البكاء، هدأتني ومسحت دموعي وهيَ تنظر لوجهي بعيونٍ تلألأت بالدموع والفزع، وبقت بجانبي لفترة طويلة. شاردة في حزن. وواضعة يدها على خدها الذي احمر من شدة ضربها له.

عاد أبي وهيَ على شرودها الحزين. جلس بجانبنا. وطفق يقلب الأعلام بين يديه بعيون باردة. نظرتْ إليه وكأنها تنتظر منه أن يقول شيئاً يخفف عنها الضيق الذي عصر قلبها ألماً. لكنه لم يهمس بحرف لها. فقد ظل ساكتاً يبادلها النظر بفتور وبرود.

أبي لم يتفاجأ كما تفاجأت هيَ، ولم يبكِ أو يغضب. بروده آنذاك أزعجها وأغضبها بشكل جعلها تخطف الأعلام من بين يديه بحنق. حيث أخذتها إلى المطبخ وشرعت تحرقها بداخل قدر معدني كبير.

كنت بجانبها أشاهد الأعلام وهي تحترق، وتتكون في وسط القدر قطعاً سوداء متكورة برائحة الاحتراق. وقفت أمامها نادماً على سوء فضولي، ومحتاراً جاهلاً في كل ما كان يحدث. عندئذ، وصل أخي عائداً من عمله. تنفس رائحة الحريق، فاتجه إلينا مسرعاً خائفاً. قلب بصره علينا وتأمل إحراق أعلامه وهو متسمرٌ في مكانه.

وقتها رأيت الحزن والذهول يرسمان تفاصيل قاتمة على وجهه النحيل. طأطأت رأسي ناظراً لقدميَّ وتمنيت أن لا يعلم أني السبب في انكشاف ما أخفاه.

دموع أمي التي توقفت عن الانسكاب، انهمرت مرة أخرى بحزنٍ هادئ وعميق. اقترب أخي منها وهو يجر قدميه بندم واضح. مسح دمعها بيديه وشرع يقبل جبينها ويسترضيها بكلمات وعبارات فيها من الأسف والأسى الشيء الكثير.

❖❖❖❖❖

أخي (حبيب) أكبرنا سناً. يعمل ببيع السمك في مدينة (عبادان). في السابق كان صياداً، هاوياً للصيد، ومحباً للبحر أكثر

من نفسه. لطالما حكى لي عن مغامراته أثناء زيارته لنا، ولطالما قصَّ لي حكايات عن الحيتان البيضاء وبنات الماء والسندباد البحري.

وأنا بعمر السنتين، صادرت قوة أمنية قاربه الذي يصيد فيه. لم يحتمل ذلك فقفز كالمجنون محاولاً إيقافهم، لكنه عجز عن ذلك، فانتفض وطفق يلعنهم ويتعارك معهم.

تجمعوا حوله متعصبين وانهالوا عليه فضربوه حتى دمى وسكن جسمه عن الحركة وارتمى على الأرض مليئاً بالكسور ومثقلاً بالأوجاع. اعتقلوه ومكث في السجن سنة لم تخلُ من التعذيب. ثم أخرجوه بعد أن نفذوا عليه حكماً قضى بقطع يده اليسرى وقدمه اليمنى، لذلك، ومنذ ذلك الحين، صار يعمل في بيع السمك بدلاً من اصطياده، وصار يحمل عكازاً خشبياً، يساعده على تدبر شؤونه، متحركاً بواسطته كشبح.

في مساء اليوم التالي من انكشاف الأعلام، هاتفت أمي أخي (حبيب) وأعلمته عن درب الموت الذي يسير فيه أخي (محمد). عندها اخبرها بقدومه في الأيام القليلة القادمة.

سألت أمي:

- كم سيمكث عندنا هذه المرة؟

- يوماً. يومين بالكثير.

- هذا قليل.

- أخوك مشغول، ولا يمكن له أن يبقى بعيداً عن عمله.

يومها كان أخي (محمد) مزعوجاً. فـ(حبيب) آت من أجله وحده فقط، من أجل أن يقدم له النصيحة، ويثنيه عن الطريق الذي يسعى إلى سلوكه بغير تفكير كما سمعت أمي تقول. ساعتها درسني بجفاف، وقال لي بصوت فيه انزعاج كبير:

- انتبه معي. أريدك أن تتجاوز سريعاً مرحلة البلاهة التي يمر بها الطلاب العرب نتيجة عدم معرفتهم بالفارسية.

سكت قليلاً، ثم نظر إليَّ وقال بحدة:

- هل فهمتني؟

أجبته مضطرباً:

- نعم، فهمتك.

كان كرهي للمدرسة يتعمق في داخلي متراكماً كل يوم. فمعلمنا الفارسي يهذرف شارحاً دون أن نفهم منه شيئاً. الطلبة الفرس هم وحدهم فقط من يفهمونه. أثناء شرحه يزورنا الملل بشدة جالباً النوم معه. فأقاومه كلما حضر بصعوبة، وأفز مرعوباً أطرده من عينيَّ كلما تذكرت غضب المعلم وخبثه. بعض الطلاب العرب يستسلمون له فينامون أثناء الشرح دون أن يشعروا بذلك. عندئذ، تترامى صوبهم نظرات الاحتقار من المعلم ممزوجة بغضب مخيف. أحياناً، يركل النائمين بقدمه

من أجل أن يوقظهم، وعندما يكون مزاجه سيئاً، يركلهم بقوة حتى يبكيهم. ولأن بكاءهم يزعجه أصبح يترك لهم حريتهم في النوم دون أن يبالي.

❖❖❖❖❖

في بداية أيامي الدراسية، سمعت العديد من الطلاب العرب يتهامسون برعبٍ فيما بينهم عن قيام الأمن بتجهيز منصة الإعدام في الباحة القريبة من المدرسة. تساءلت وقتها: كيف تذبح السلطات إنساناً مستخدمة حبلاً في ذلك؟!

لم يكن خيالي، آنذاك، يقدم لي أية إجابة أو صورة قريبة لمشهد الإعدام عن طريق الحبال. فلم أكن قد شاهدت بشراً يقتلون بهذه الطريقة أو بأخرى غيرها.

عندما انتهى الدوام، حملت حقيبتي على ظهري، وسرت عائداً إلى البيت، خائفاً من مشهد الإعدام الذي قد أصادفه في طريقي. كانت فكرة الموت تخيفني، ودفن الإنسان تحت التراب أكثر ما يرعبني.

يومها تفاجأت بأمي واقفةٌ تنتظرني بعيداً عن باب المدرسة. ارتحت لوجودها الدافئ، وشعرت بالأمان يعود إليَّ بعد أن فقدته مع أول كلمة تهامس بها الطلاب عن الموت الذي سيحضر. أمهات أخريات كن ينتظرن أبناءهن أيضاً.

أمسكتْ أمي بيدي وسارت بي نحو المنزل من طريق آخر. استفسرتُ منها سائلاً:

- ماذا هناك؟

أجابتني بقلق:

- لا شيء.

أخبرتها عن حادثة الإعدام التي تهامس بها الطلاب. قلت لها:

- أعرف كل شيء.

- ماذا تعرف؟

- أعرف أن هناك منصة يتم تجهيزها لقتل بعض البشر مستخدمين الحبال في ذلك.

لم تجبني بشيء، فسألتها:

- أليس ما قلته صحيحاً؟ (أضفت لها) الطلاب يتهامسون بذلك فيما بينهم من أول حصة دراسية.

عندها أجابتني مستسلمة قائلة:

- أجل، ستعدم السلطات عدة شباب. منذ الصباح الباكر وهم يعملون على تجهيز المنصة والاستعداد للأمر. لا يجب عليك أن ترى هذه المشاهد. ما زلت صغيراً على ذلك.

أنهتْ كلامها ثم تساقطت دموعها بهدوء على خديها الزهراوين. سألت نفسي: ما الذي يبكيها؟ أهي خائفة؟ يبدو أنها كانت مرعوبة من أن يحدث لأخي ما سيحدث لهؤلاء الشباب، أو ما حدث لأخويها من قبل.

عندما وصلنا إلى البيت، حذرتني بحرص، وأوصتني بعدم الحديث مع أحد، طالباً كان أو معلماً. أبي قال لي أيضاً إن أولاد الحرام كثر، يتجسسون ويستغلون الأطفال الصغار في ذلك. نبهني هو الآخر، وحذرني من الحديث للغرباء عن البيت وما يحدث فيه، يومها، أرعبتني تحذيراتهم فخفت كثيراً مما قد أقترفه على جهل مني.

تذكرت جارتنا أم (صالح)، عندما خرجت تصيح وتنتحب وتضرب نفسها وتشد شعر رأسها أمام بيتها كالمجنونات. كان هذا قبل شهرين تقريباً. فقد أعدموا ابنها (صالح) وزوجها بعد أن ظلا في السجن مدة تجاوزت خمس السنوات، يومها، خرجتْ أمي إليها مسرعة مع نساء أخريات. أمسكوا بها وأعادوها بقوة إلى بيتها.

قال أبي إن الناس تتكلم بلغط عن تقرير كتبه جاسوس يتحدث فيه عن ابنها وزوجها سُلِمَ للمخابرات، كان السبب في إعدامهما.

❖❖❖❖❖

في يوم ثلاثاء، بعد حادثة الإعدام بأسبوع تقريباً، وفي المدرسة التي أكرهها. جالساً وحدي أثناء الفسحة، أرقب الطلاب وأتناول قطعة الخبز التي تعدها لي أمي كل يوم. جلس بجانبي أستاذ. ابتسم لي. تجاهلته. سألني بالعربية:

- كيف حالك يا أسد؟

- الحمد لله.

سألتُ نفسي بخوف:

- ماذا يريد هذا مني؟

سألني:

- ما اسمك؟

- سجاد.

- ما شاء الله. بارك المولى فيك يا (سجاد).

وضع ذراعه على كتفي فأقلق راحتي. بدأ يمازحني ويسألني. سألني عن أبي وعمله، عن أمي وعملها، وعن إخوتي وأعمالهم. تأففت منه في خيالي، فقد أخافتني أسئلته. لا شك أنه الجاسوس (ابن الحرام) الذي حذراني منه أبي وأمي سابقاً. خفضتُ رأسي إلى الأرض خائفاً، ماسكاً كسرة الخبز في يدي، ومتوقفاً عن تناولها.

كان الماكر ينتقل من سؤال إلى آخر. التزمت الصمت، لم أجبه عن شيء، فيأس مني وانزعج. واختفت ابتسامته التي بدأ يحدثني بها وتغيرت ملامح وجهه إلى حنق واضح. ثم تأفف وانصرف. بصقت عليه في خيالي. ابن الحرام كان يريد أن يكتب تقريراً عن أبي أو أخي أوكليهما، بمعلومات يصطادها عن طريقي.

في نهاية الأسبوع، حضر أخي (حبيب) من (عبادان). مسكين هو، يجد صعوبة عندما ينهض أو يسير. كثيراً ما أخاف أن أنظر إلى أجزائه المبتورة. تسري قشعريرة خوف في جسدي عندما أنظر إليها مصادفة. رغم ما هو فيه، إلا أنه كان يضحك بصخب، ويبتسم للجميع بانشراح. ولا يُرى عليه الحزن ولا آثاره. يبدو أنه سعيدٌ في حياته، أو هكذا أراد لنا أن نعتقد.

أمي تريده أن يتزوج لأجل أن تقرَّ عيناها برؤية أحفادها قبل أن تموت كما تقول، لكنه يرفض هذا الشيء بشدة. يقول لها: من هذه الحسناء التي ستقبلني بهيئتي الوحشية هذه. رده هذا يسكتها دائماً فلا تجد ما تقوله له. فقط تنظر إليه بحزن وتنفجر أمامه باكية.

زيارته لنا، آنذاك، لم تدم طويلاً. فقط يوماً ونصف اليوم. قضى معظمها مع أخي (محمد)، يتحدثان بمفردهما بشكل متكرر، حتى أثناه عن ما كان يحاول القيام به كما أفاد لأمي وأبي.

❖❖❖❖❖

أيامها كانت دنياي تدور في فلك محدود. كل شيء فيها متشابه. وكأن حياتي بحيرة ساكنة تمر عليها رياح من فتورها لا تقوى على تحريك مياهها ولو لتكوين مويجة واحدة. لا يختلف اليوم الحاضر عن ماضيه.

ومع الأيام، كنت أشعر بتناقص الطلاب العرب في صفي يوما بعد آخر. في نهاية العام، لم يتبقَ منهم إلا خمسة، سادسهم أنا.

❖❖❖❖❖

2

لعنة أباد

أنهيت بحماس آخر يوم دراسي في سنتي الأساسية الأولى. يومها عدت إلى البيت ضاحكاً، أجري بانشراح ومرح. عندما وصلت وجدت رجالاً يقفون أمام بابه المفتوح. كان بعضهم يخرج منه ويدخل. تملكتني الدهشة، وأصابني الخوف ومشيت على مهل أجر نفسي بالقوة. وزعت نظري فاحصاً الناس المتجمهرين أمام منزلنا. كنت لا أعرف معظمهم فقد كانوا غرباء بالنسبة لي. تأملتهم بتعجب فأزعجني تهامسهم الحزين فيما بينهم وهم يرمقوني بنظرات آسفة.

وأنا أعيش لحظات من الخوف والحيرة أوقفني جارنا العم (يوسف). مسك بيدي وسار بي نحو بيته وهو يقول لي بصوت طغى الأسى على نبراته:

- لا تحزن، الموت مصير كل حي. هذا أمر الله وقدر لا مفر منه.

أفزعتني كلمة الموت في حديثه، والتي أطلقها كسهم من حنجرته ذات الصوت الأجش. من يقصد بها يا ترى؟ لم أتجرأ على سؤاله، فقد كان الخوف يخنقني بقوة، ويكاد أن يكتم أنفاسي. وكنت كلما اقتربتُ من منزله أكثر أسمع صوت بكاء أمي.

بعد بضع خطوات وصلنا إلى منزله، أدخلني إحدى غرفه الفارغة ونادى على زوجته. كان نحيب أمي وصراخها بكلمات ترثي بها أخي (حبيب) ينبعث من الغرفة المجاورة.

اقشعر بدني، وبدأت أتنفس في اضطراب أليم. أخي (حبيب) هو من مات. تقرفصت في إحدى زوايا الغرفة، واضعاً رأسي بين ركبتي، ومحاولاً سد أذنيَّ بيديّ حتى لا أسمع نحيب أمي المرعب، الذي كان يهز بدني والمكان ومن فيه بخوفٍ لم أشعر به من قبل. أحسست حينها أن قلبي سيتوقف من شدة الخوف فبكيت بصمتٍ وألم.

في تلك الأثناء، حضرت الخالة نهلة (زوجة العم يوسف) وحاولت تخفيف حزني. لم تعرف وقتها أن الرعب هو من كساني بقوة. طاغياً على الحزن الذي لم أشعر به حينها.

قالت لي:

- لا تحزن، أياماً ويخف حزن أمك.

عندئذ، وقفت امرأة أمام باب الغرفة. حملقت فيَّ بنظرة حزن لا تطاق، ونادت على الخالة (نهلة) التي ابتسمت لي وانصرفت

قائلة أنها ستعود إليَّ بعد قليل. بعد ذهابها انتصبت واقفاً. ومشيت على مهل بدموع مسكوبة وخطوات مهزوزة أسير بها نحو الغرفة التي ينبعث منها صوت أمي الصارخ المجروح.

هناك رأيتها وسط نساء كثيرات. أفزعتني صورتها المخيفة. كان شعرها مبعثراً كالمجنونات. وجهها أحمر، وعيناها أكثر احمراراً. دموعها لا تتوقف عن الانسكاب. وتصيح صارخة بلا توقف. وكان بعض النسوة يمسكنها من يديها وأكتافها ومن رجليها أيضاً. عندما يفترن، تجدها فرصة فتنفك منهن وتشرع بضرب نفسها ونتف شعر رأسها. عندها ينتبهن لها فيعدن للإمساك بها بقوة أشد من السابق.

وأنا متسمر في مكاني أرقب أمي وكأنها في وسط جهنم تتكوي بنار لا ترى، دخلت امرأة مسرعة، قصيرة وسمينة وتحمل في يدها اليمنى حقنة. حقنت بها أمي في ذراعها الأيمن، وسرعان ما غابت عن الدنيا نائمة. متوقفة عن الصراخ والنحيب. انتبهتْ آنذاك لوجودي الخالة (نهلة). اقتربت مني على عجل وأبعدتني قائلة:

- دعها ترتاح. الحقنة لها أفضل. هكذا تنام ولا تعذب نفسها. وعندما تفيق سيخف حزنها.

ابتسمتْ لي ابتسامة ذابلة وأكملت حديثها:

-توقف عن البكاء الآن. أنت رجل والرجال لا يبكون. النساء فقط هن من ينتحبن، ويلطمن أنفسهن حزناً وكمداً.

❖❖❖❖❖

مر شهر والحزن جاثٍ على صدورنا. قابعاً في بيتنا. معشعشاً في أركانه يرفض أن يتركنا. أختي (سكينة) التي حضرت من (المحمرة) من كانت تهتم بشؤوننا في تلك الأيام. أبي كان في (عبادان) يطالب السلطات بتسليمه جثمان أخي (حبيب). مكث هناك سبعة عشر يوماً. عاد مقهوراً، فارغاً. دفنوه في مقابر لعنة أباد بعد أن شنقوه. هكذا قال متحسراً فور عودته كما أفادوا له.

المغضوب عليهم من قبل النظام هم فقط من يُدفنون في مقابر لعنة أباد. تلك المقابر السطحية، التي تغزوها الكلاب في أنصاف الليالي فتنبش الأجساد وتتغذى عليها.

كثيراً من جثث هذه المقابر عديمة الأحشاء، فالملاعين يقومون بتصفيتها قبل دفنها من معظم الأعضاء التي يمكن لهم الاستفادة منها ببيعها والمتاجرة بها. وغيرهم من البشر يُدفنون في مقابر جنة أباد. عالم غريبٌ عجيب. حتى في المقابر مارس الفرس عنصريتهم وإرهابهم.

عندما تسأل الناس عن سبب إعدام أخي (حبيب). يجيبهم أبي بحزن وقهر:

- حضرت قوة أمنية وشرعت بتدمير البسطات وأكشاك الناس التي يرتزقون منها. (حبيب) كان يملك كشكاً خشبياً متواضعاً. يبيع فيه السمك الذي يشتريه من الصيادين. انتفض مع بعض الناس وشرعوا بالدفاع عن مصادر أرزاقهم. فاعتقلوه وآخرين غيره.

ونفذوا بحقهم حكم الإعدام بسرية وعلى عجل. ومن دون تسليم الجثث للأهالي...

❖❖❖❖❖

3

صديقي البلوشي

مرت خمسة أعوام. أنهيت فيها خمس سنوات دراسية بتفوق. أصبحت أكتب وأقرأ بالعربية، وأجيد الفارسية نطقاً وكتابة أيضاً. صرتُ أذكى طلاب صفي، فقد تفوقت على الجميع، حتى على الطلبة الفرس أنفسهم.

على مدى سنواتي الدراسية الخمس. جُلّ من تعاقبوا على تعليمنا ينتمون للعرق الفارسي. أخي (محمد) قال: إن (طهران) تعمل على نقل الأساتذة العرب إلى خارج (الأحواز)، إلى أقاليم إيرانية أخرى. وفي مختلف مدن (الأحواز) تكدس أساتذة فرس، أو من أقاليم إيرانية. أضاف قائلاً بحنق:

-تفريسنا هو الهدف من كل ذلك. ومرحلة التعليم الأساسية أكثر حساسية وأهمية. لذلك يعمدون على جعل هذه المرحلة بيد معلمين فرس في معظم المدارس.

❖❖❖❖❖

في أول يوم دراسي لي في المرحلة السادسة. ومن مدينة (المحمرة)، انتشرت أخبار في المدارس عن قيام أحد المعلمين العرب بالتوجه إلى المدرسة التي يعمل فيها بلبسه العربي (الثوب، الكوفية، الشماغ والعقال). تحدى بذلك قوانين المنع التي سنها الفرس بهذا الشأن. أفادت الأخبار أيضاً أنه اختفى بلبسه العربي في اليوم ذاته. لم يعد إلى بيته، ولا يعلم أحد أين اختفى. حتى السلطات، عندما سُئل عنه، أنكرت معرفتها.

- يكذبون. هم أخذوه وبالتأكيد أعدموه.

هكذا قال لي أبي بغضب عندما أعلمته بخبر هذا الأستاذ. حدثت نفسي: مسكين هو هذا المعلم. هاجر إلى المقابر بمحض إرادته. هو الآن في إحدى مقابر لعنة أباد. مثل أخي (حبيب) المسكين أيضاً.

وفي أول أسبوع دراسي، انضمَّ طالب جديد إلى صفنا. اسمه (رسول)، من إقليم بلوتشستان. كان والداه يعيشان هناك. لكن قبل ولادته بعام، نقلت السلطات عمل والده في دائرة الاتصالات إلى (الأحواز). بالتحديد إلى مدينة (الحويزة). وقبل عشرة أيام انتقل عمل والده ثانية، من (الحويزة) إلى (الأحواز) العاصمة. هكذا اخبرني عندما شرعت أتعرف عليه.

يجيد ثلاث لغات: لغته البلوشية الأم، والعربية التي تعلمها بحكم ولادته ونشأته وسط مجتمعنا العربي، واللغة الفارسية التي

أجبر على تعلمها مثلي ومثل بقية أولاد المدارس الذين ينتمون للأعراق غير الفارسية.

مرة قال لي متحدثاً بانكسار عن وطنه:

-في بلوتشستان، هناك أيضاً اضطهاد. اعتقالات وإعدامات بسبب وبلا سبب.

حدثت أبي عن ذلك فعقب على كلامه قائلاً: إن اضطهاد الفرس لا يفرق بين الأعراق غير الفارسية. لكن هناك اضطهاد وحقد من نوع آخر. ظلم أبشع يمارس، فقلوبهم فيها عقدة من أي شيء عربي. حتى لباسنا حاربوه.

4

جسد عربي بروح فارسية

امتزجت كراهيتي للمدرسة بكراهيتي للمنهج الذي يعلموننا إياه. كل شيء عن الفرس وفارس. التاريخ فارسي، والأدب فارسي.... وما إلى ذلك. غير الدروس البغيضة التي تُعنى بالثورة الخمينية، والتي يحاولون غرسها في نفوسنا البريئة بشتى الوسائل الممكنة وغير الممكنة. وفي مواد الأدب التي كنا ندرسها، كثيراً ما تتواجد دروس مأخوذة من الشاهنامة. كتاب الفرس الذي يقدسونه، والذي يحتل مكانة وثقلاً كبيراً في نفوسهم، خاصة القوميين منهم. أخي (محمد) يقول عنه ساخراً: كأنه قرآنهم.

(بهرام) اسم معلمنا البغيض في المرحلة الدراسية السادسة. متعصباً لعرقه مثل جميع بني جلدته. أحياناً يزيد عليهم في ذلك. كان يكثف جهوده ليلقي لنا جُلَّ ما يمكنه من الشاهنامة.

مرة طلب مني أن أرتل بعض الأبيات منه. كانت أبيات كريهة، تمجد كسرى وفارس. شعرت أنه يحن إلى ذلك الماضي السحيق، فدائماً يتعمد اختيار طالب عربي لترتيل هذا النوع من الأبيات.

يومها وقفت أقرأ مجبراً مستاءً، و(رسول) جالس بجواري يرقبني وأنا أغالب تفاصيل الاستياء حتى لا ترتسم على تقاسيم وجهي خوف أن يغضب المعلم مني إذا رآها.

عندما بدأت بالقراءة، قام (رسول) بكتابة جملة بالعربية على ورقة صغيرة. كورها ثم دسها في يدي خلسة. مستغلاً بجرأة الابتعاد القصير لنظرات المعلم نحوي.

انتظرت الفرصة الملائمة لفتحها، ولما حانت فردتها بأصابعي ببطء وخلصتها من تكورها العشوائي، ثم قرأتها (صديقي، إياك أن تصدق الخرف الذي تقرؤه). ابتسمت واتسعت شفتاي ضاحكة بخفة. رآني المعلم فنظر نحوي بحقد وسخط. أرعبني فتوقفت عن الضحك من الخوف. وأكملت قراءة السطور بصوت مهزوز وعينين مضطربتين.

اشتعلت روحه بحقد شديد وتوجه نحوي كضبع جائع. توقفت عن القراءة مفزوعاً. انتزع الكتاب من يدي وشرع يضربني به على رأسي ويسبني. كنت أحاول اتقاء ضرباته بذراعي، قابضاً على يمناي ومخفياً الورقة داخلها. كان يضرب بقوة وسرعة حتى تشقق الكتاب وانفصلت أوراقه متطايرة في الهواء. عندها تعب فتوقف وهو يلهث كالكلب دون أن تسكن روحه الخبيثة عن تقيء شتائمه.

صار رأسي يؤلمني، والدنيا تدور بي. نظرت إليه محاولاً تثبيت صورته الدنيئة أمامي. كل شيء كان يدور حولي. ورغم كل ما حدث لم تهدأ نفسه الخسيسة، فصفعني بقبضة يده اليمنى حتى أسقطني،

آنذاك، ورغم الضعف الذي أصابني إلا أني وجدتها فرصة مناسبة. فقد وضعتُ بخفة الورقة في فمي. مضغتها فامتزجت بالدم الذي سال من لثتي ثم بلعتها. طعم الدم ازعج معدتي، فشعرت برغبة شديدة لأتقيأ. قاومت هذا الشعور فنجحت في ذلك.

جرني بعدها من يدي بقوة نحو مكتب المدير. سحبني وهو يهذرف بكلمات وعبارات فارسية، يسبني فيها ويسب العرق العربي. وصلنا لمكتب المدير فأخبره بما أراد. أفاد له أني ضحكت ساخراً على تاريخ الفرس أولياء نعمتي.

مدير مدرستنا عربياً، لكن بخبث وروح فارسية. يقولون إنه حتى في بيته يتحدث بالفارسية. نلقبه بالسعدان، لأن يديه طويلتان ودائما ما يحك رأسه بإحداها فتتقوس كالسعادين. نضحك عليه كثيراً عندما نراه يفعل ذلك. وقتها طلب مني السعدان أن انتظر خارجاً بجوار باب مكتبه، فوقفت هناك انتظر بانكسار كما طلب مني، وانصرف الأستاذ عائداً إلى الصف بغضبه وبشتائمه التي استمر في قذفها برداءة في الهواء.

مكثتُ واقفاً انتظر لساعة تقريباً. الدم الذي سال من أنفي كنت أمسحه بكم قميصي. أوقات كنت أرفع رأسي إلى الأعلى ضاغطاً على أنفي بأصابعي محاولاً منع استمرار سيلانه. وكنت أبصق دماً داخل ورقة وجدتها مرمية بجواري. تمنيت لو أبصق على المعلم والمدير معاً. بصقت عليهم ولعنتهم كثيراً في خيالي، في خيالي فقط.

ناداني المدير فتوجهت إليه بكم قميصي المتسخ بالدم. نظر نحوي بعيون ناعسة وغير مبالية، وشرع يحدثني بتثاقل، وبتثاؤب كان أكثر من حديثه.

قال لي:

- سيخرج الأمر عن يدي إن كررت سوءاً. لن تبقى في المدرسة بعدها، وقد يحل عليك ما لا تتمنى أنت ولا أهلك. انصرف.

حك رأسه فتقوست يده. ضحكتُ عليه في خيالي وانصرفت. خرجت بعدها من المدرسة ووقفت بعيداً عنها انتظر. فكرت أن أعود لأخذ حقيبتي فور انتهاء الدوام المدرسي. عودتي إلى الصف ليس من صالحي. أن ابتعد عن المسخ في هذا اليوم المشحون أفضل لي. عندما انتهى الدوام، خرج (رسول) يحمل معه حقيبتي.

- أنا آسف.

هي العبارة الوحيدة التي كان يخاطبني بها في ذلك اليوم. شعوره بالأسى كان واضحاً من عينيه ومن كثرة تأسفه لي.

قلت له متجاهلاً ما حدث:

- لا عليك. عَدّتْ على خير.

يومها لم أعد إلى البيت مباشرة. فقد صحبت (رسول) إلى منزله. انتظرته بعيداً، فعاد يحمل قنينة ماءٍ وصابوناً أخرجهما

خفية. قال إنه رماهما من النافذة إلى خارج المنزل حتى لا تلاحظه أمه فتسأله عن السبب.

خلعت وقتها قميصي، وغسلت الكم الذي وسخه الدم. بقع دم أخرى صغيرة كانت تتواجد في أماكن مختلفة منه. أزلتها أيضاً. سَتُجن أمي إن رأت شيئاً عليّ.

بعد أن انتهيت من تنظيف قميصي ارتديته وتركته يجف عليّ، آنذاك. سألني (رسول) بصوت فيه أسى:

- ماذا فعل بك المدير؟

- لا شيء. وبخني فقط.

- غريبة.

- هددني.

- هذا هو. أنا حقاً آسف.

- قلت لك انْسَ الأمر. أتحب أن نمشي قليلاً؟

- لا مانع لدي.

مشينا بتعمد تحت أشعة الشمس كي يجف قميصي. رأسي مازال يؤلمني، خاصة أثناء تحركي. لم أشكُ توجعي لـ (رسول). خفت أن يعتذر. تأسفه المتكرر لي يزيد من الصداع الذي سكن رأسي.

بعد ساعة جف قميصي فعدت إلى البيت مسرع الخُطا، خائفاً من أن يشتعل القلق في روح أمي بسبب تأخري.

❖❖❖❖❖

تفًّا تفًّا لك أيها الزمن...

كيف تسمح لهذا العربي.

من يشرب ويستحم بأبوال الإبل.

أن يأتي إلى هنا.. أن يقضي على عرش كسرى باسم الفتح.

تفًّا تفًّا لك أيها الزمن...

(نص من الشاهنامة)

5

الشاهنامة

بالصدفة تعرف أخي (محمد) على (جواد)، شاب يقطن في الحي المجاور لحينا. كان حديثه غريباً كما قال أخي. ففي بداية تعارفهما طفق ينهال على الخميني وثورته بالسباب واللعنات، عندما وجد أن أخي لا يتجاوب معه في ذلك شرع بمدحهم والثناء المفرط عليهم. وبعد أيام من تعارفهما، أهدى أخي كتاب الشاهنامة بنسخته العربية.

في المساء عاد أخي (محمد) يحمل الكتاب معه، وهمَّ بحرقه لحظة وصوله. فأسرعت أمي نحوه تمنعه. قالت له بحرص:

- أخاف أن يأتي يوم يسأل فيه عنه. وقتها مهما اختلقت له من أعذار لن يصدقك. بل سيجدها فرصة لإثراء تقرير عنك، يقدمه بلهفة لهم من أجل أن يسعدهم.

هكذا أصبح الشاهنامة قابعاً في أحد رفوف بيتنا. أحياناً كنت أقرأ منه فيصيبني الملل عندما أقوم بذلك. مرة أسخطني ما قرأت، فانتفضت منزعجاً، لاعناً الكتاب وكاتبه.

تفّاً تفاً لك أيها الزمن.. كيف تسمح لهذا العربي. من يشرب ويستحم بأبوال الإبل. أن يأتي إلى هنا.. أن يقضي على عرش كسرى باسم الفتح. تفّاً تفّاً لك أيها الزمن.

نزعت الصفحة من الكتاب مغتاظاً، وأحرقتها متلذذاً في ذلك دون أن يعلم أحد. تمنيت لو أحرق الكتاب بكامله. لذتي وقتها ستكون أكبر. ساعتها فقط، عرفت لمَ كان يشتهي أخي إحراقه؟

❖❖❖❖❖

6

أختي سكينة

جُنت أختي (سكينة). مكثت ضائعة لمدة عشرة أيام حتى وجدها أهل زوجها وهي تسرح في الأحياء بحثاً عن ولدها (زكريا) بعقل غائب، وتدق أبواب المنازل تسأل عنه بقلب فارغ.

قبل أن نعرف ما أصابها، وفي عصر يوم جمعة بالتحديد، رن هاتف منزلنا. كان أبي جالساً متكئاً يقرأ في كتاب تاريخ عربي. التقفت أمي سماعة الهاتف وشرعت بالكلام. فألصقتُ أذني بقرص السماعة، الجزء الذي ينبعث منه صوت المتحدث لأسمع ما يقول. كانت هذه عادتي -السيئة كما يقولون- كلما سبقني أحدهم بالإجابة عليه.

- الو.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله.

- كيف حالكِ يا أم (حبيب)؟

- نحمد الله على كل شيء. من الأخت التي تحدثني؟

- أنا (نعمة)، خالة (حاتم).

- أهلا ومرحباً (نعمة). كيف أنتِ أختي؟

(نعمة) امرأة كبيرة تعيش في (المحمرة)، لها صلة قرابة مع أمي لكن من أغصان بعيدة.

- بخير والحمد لله.

- غريبة أن تتصلي بنا! هل هناك شيء؟ هل حدث شيءٌ بين (سكينة) و(حاتم)؟

خلافات أختي (سكينة) مع زوجها (حاتم) لم تكن تُذكر. فمنذ زواجهما لم تطفُ أي خلافات بينهما على السطح. ولكنهم لا يهاتفونا من (المحمرة) إلا إذا كان هناك شيء لم يحتمل السكوت عنه.

توقعت أمي في بداية الأمر أن يكون قد حصل خلاف كبير بينهما.

قالت (نعمة) بصوت طغت عليه الكآبة وامتزج بالتوتر:

- والله لا أعرف ماذا أقول لكِ يا أم (حبيب).

قالت هذا ثم صمتت للحظة، لحظة طويلة. ثار الدم في عروق أمي وردت عليها بصوت شديد، التف الخوف بين كلماته:

- أفرغتِ قلبي من دمه وأشعر أن نبضه سيتوقف. أستحلفكِ بمن يسكن في السماء أن تُعجلِي بقول سبب اتصالك. ماذا هناك؟ ماذا حدث؟ قلبي لم يعد يحتمل تلاعباً بالأعصاب أكثر من هذا.

هنا انتبه لها أبي ونظر نحوها بتوجس وقلق. ترك الكتاب من يده ثم فَزَّ من مكانه وخطف سماعة الهاتف من يدها وشرع هو يحدث (نعمة). فأخبرته (نعمة) بصوتها المتردد والكئيب عن جنون أختي (سكينة) وبتفاصيل قليلة عن سبب جنونها.

يومها سافر أبي مضطرباً إلى (المحمرة) بصحبة أخي (محمد) لإحضارها. لم يلحقوها. فقد هربت مجذوبة من مسكن (نعمة) قبل أن يصلوا ودهستها سيارة فماتت بعدها بأربعة أيام في أحد مشافي (المحمرة).

❖❖❖❖❖

قبل هذا بثلاثة أشهر، اختطف رجال ملثمون زوجها (حاتم) وهو سائر قُرب بيته. عائداً من عمله في محل لبيع الملابس المستعملة قبل منتصف الليل بساعة. رأت زوجة جاره من نافذة غرفتها ثلاثة رجال ملثمين وهم يهجمون عليه من خلف ظهره وينهالون على رأسه ضرباً بهراوات حتى سقط متهالكاً. تعالى صوتها الصارخ في أرجاء الحي مستغيثة مستصرخة، فقام المعتدون على عجل بحمله ورميه لداخل شاحنة صغيرة كانت

واقفةٌ هناك من أجلهم وانطلقت مبتعدة عن الحي بسرعة كبيرة. تجمع الناس بسبب صراخها، لكنهم لم يجدوا منها إلا كلمات مبعثرة تخرج من حنجرتها المهزوزة بخوف.

مر شهر و(حاتم) مختفٍ، يبحثون عنه دون أن يجدوا له أي أثر، حتى اختفى الأمل بإيجاده، بعدها وجده بعض الناس مرمياً أمام كومة قمامة قريبة من منزله، يصارع الموت بجسد متهتك وعظام مكسرة ودم كسا معظم بدنه طاغياً على المكان المرمي فيه مشكلاً بحيرات صغيرة بلون أحمر قاتم امتزج بالنفايات. يومها فارق الحياة بعد أن نقلوه إلى أحد المشافي بساعات فقط.

مرت أيامٌ كئيبة وأختي (سكينة) ووحيدها (زكريا) الذي يكبرني بخمسة أعوام، يعيشون في حزن وغم لم نعلم عنه شيء.

بعد هذه الفترة القاسية نُكبت أختي باختفاء (زكريا) بشكل مفاجئ. تزلزلت وبدأت تفقد عقلها. بحثوا وسألوا عنه لخمسة أيام دون أن يصلوا إلى شيء، وكأن الأرض انشقت وأخفته في جوفها.

بعد مرور هذه الأيام المتصدعة والموحشة وجدوه مرمياً جثة هامدة في المكان نفسه الذي وجدوا فيه أباه من قبل. عثروا عليه بجسدٍ سليم عكس والده، باستثناء يده اليمنى التي كانت مفرومة. حينها تهامس الناس فيما بينهم عن يده قائلين:

- يبدو أنهم أسقطوا عليها كتلة من حديد فهرسوها هرساً، وتركوه ينزف حتى فارق الحياة.

اكتمل جنون أختي بعد أن رأت ولدها وهو يُحمل إليها جثة هامدة بيدٍ يمنى مفرومة. وبقطع لحم صغيرة انفصلت وتساقطت من يده على طول الطريق الذي مشوا فيه إليها، ليقوم بعض الشباب بجمعها ووضعها في قطعة قماش وتسليمها لها كي تدفنها معه.

كل هذا حصل لها دون أن نعرف بشيء، ولا نعلم حتى الآن ما الذي جعلها وجعل أهل زوجها يخفون عنا ما حدث منذ اللحظات الأولى.

عاد الحزن والنحيب إلى بيتنا بشكل مخيف وعجيب. لم نستوعب هجرة أختي وعائلتها بكاملها إلى المقابر بهذه الصورة المفجعة، وأن يُحمل إلينا خبرهم بهذه الطريقة الغريبة والمباغتة. أصبح الحزن كالنار يلفحنا بقسوة. نبكي وننتحب دون أن نستوعب ما حدث. وكأن ما فُجعنا به جزء من الخيال.

انهالت أمي أياماً وليالٍ بالدعاء على إخوة (حاتم) الذين يسكنون في لندن ويشتغلون ضد النظام من هناك، رامية السبب عليهم في كل ما حدث.

7

حبال المشانق

في أحد أيام الفصل الثاني من سنتي الدراسية السادسة. عُدّتُ من المدرسة إلى البيت منهكاً. ارتميت على المرتبة، وقررت أن أنام، آنذاك، تكاسلت من فتح الباب لطارق مزعج وعنيد. طرقه سريعاً وخفيف. أضجرني فتوجهت أفتح الباب له مجبراً.

لحظتها تفاجأت بـ (رسول) يقبع خلف الباب. لم تكن من عادته أن يزورني بعد المدرسة مباشرة. تعجبت من ذلك فسألته مستغرباً:

- ماذا هناك؟

سحبني من الباب بعيداً عن المنزل، ثم قال وهو يلهث بصوت خافت:

- الأمن ينصب منصات الإعدام بالباحة القريبة من المدرسة.

- كيف عرفت ذلك؟

- أبي أعلمنا عندما عاد من عمله. غافلته وأتيت إليك حتى أخبرك. ما رأيك أن نذهب إلى هناك ونشاهد؟

أحسست بقشعريرة خوف تسري في كامل بدني. قلت له:

- حقيقة لا أعرف.

غزاني الصمت قليلاً وفكرت، ثم قلت له بصوت امتزج بحيرة:

- انتظر.

توجهت للبيت ولبست حذائي بتردد. وأغلقت بابه بهدوء حتى لا تنتبه أمي لخروجي. ثم ذهبنا إلى الباحة ركضاً محاولين الوصول إليها قبل أن يفوتنا شيء.

سألته وقتها:

- هل شاهدت إعدامات من قبل؟

- نعم، أربع مرات.

رددت ما قاله بتعجب:

- أربع مرات!! (أضفت له) هذا كثير.

- ربما.

شرع وقتها يحكي لي عن الإعدامات التي شاهدها. قال إن ثلاثة منها كان في (عبادان)، والرابعة كانت في قريته ببلوتشستان

أثناء زيارتهم لها قبل عامين. نظرتُ إلى عينيه التي كانت ترقب خطوات جريه بحدة. وعجبت منه وقتها، فهذه أول مرة أعرف عنه هذا الشيء.

وصلنا إلى الباحة قبل أن يفوتنا شيئاً. الأمن مازال يعمل على تجهيز المنصة وتنظيم المتفرجين. وقفنا بعيداً نرقبهم. وقتها لم أوافق (رسول) على رأيه في التقدم إلى الصفوف الأمامية. فضلتُ أن نبقى بعيداً ونشاهد ما يحدث بصمت.

في الباحة كل شيء مخيف. حتى الهواء الذي يتهادى في الفراغ يحمل في نسماته رعباً وكأن الأشباح من تزفه لنا. كانت سيارات الأمن تحيط بالمكان، والعسكر ينتشرون بكثرة خوفاً من حدوث شغب. ونظرات الناس لها خوفٌ خاص، فأعينهم المفزوعة تصرخ رعباً وحزناً في الوقت ذاته.

بجانب المنصة وقفت سيارة بصندوق معدني كبير. قال لي (رسول) هامساً في أذني: إن من سيتم إعدامهم يقبعون داخل هذا الصندوق المعدني.

فجأة على صوت أحد العسكر متحدثاً بكلمات عربية مكسرة. قطع حديث (رسول) معي، وحديث المتجمهرين مع بعضهم. هدأ الجميع يستمعون لما يقوله بتوجس وترقب. قال متكلماً صارخاً ومهدداً:

- من نمسكه يصور سيكون رقم تسعه. ومن يحاول أن يفعل شيئاً سيكون مصيره كمصيرهم.

- إذاً سيذبحون ثمانية.

قالت هذا امرأة عجوز مرت من أمامنا تمشي ببطء شديد بمساعدة عكازها الخشبي. لمحتنا فوقفت تنظر إلينا بعيون حائرة، ثم قالت بصوت فيه دهشة:

- ماذا تفعلون هنا. مازلتم صغاراً على ذلك، هيا عودوا إلى البيت.

نظرت إليها بحدة، وأجابها (رسول) دون مبالاة:

- نريد أن نشاهد.

أضفت لها بحنق:

- لم نعد صغاراً.

توقعتُ أن تمنعنا وتجبرنا على مغادرة المكان، لكنها لم تفعل ذلك ولم تبالِ بنا. فقد تجاوزتنا حانقةً وهي تقول: أعوذ بالله من أولاد هذا الزمن، ثم جلست أمامنا غير بعيد، تشاهد المنصة وما حولها بعيون فارغة.

في مكان الإعدام تتواجد ثلاث رافعات. علقوا عليها ثلاثة حبال غليظة. حبل في كل واحدة. بجانب الرافعات يتواجد عمود

كهرباء خشبي، علقوا عليه حبلاً أيضاً. من السيارة ذات الصندوق المعدني، قام رجال أمن مقنَّعون بإخراج ثمانية رجال، أعينهم معصوبة وأيديهم مقيدة بقيود حديدية إلى خلف أظهرهم.

العسكر المقنَّعون الذين أخرجوهم. وانتشروا بجانبهم وحول المنصة كانوا يرتدون قناعاً أسود لا يكشف منهم شيء إلا أعينهم وشفاههم. حيث قام اثنان منهم بفك الأربطة التي تعصب أعين المساكين. تاركين في الوقت ذاته القيود على أيديهم.

في تلك اللحظات أيضاً، قام اثنان آخران بوضع كرسي أمام كل رافعة. كان لديهم ثلاث كراسي فقط. الحبل المعلق على عمود الكهرباء رصوا أمامه بعض الحجارة على عجل.

عندئذ، جروا أربعة بؤساء نحو الحبال. ثلاثة منهم اعتلوا الكراسي، ورابعهم أوقفوه على الحجارة المرصوفة. مسكين هو رابعهم. وقف على قدم واحدة. لم يكن هناك مساحة كافية لكلتا قدميه. فمسكه أحد المقنعين وحفظ له توازنه.

حينئذ، شرع (رسول) يحدثني بصوت خافت مهزوز:

- مرة في بلوتشستان، في قرية بجانب قريتي. هجمت عليها قوات فارسية. وأعدموا عشرين شاباً في يوم واحد.

- عشرين! في يوم!

- بل في ساعة واحدة وعلى عجل.

عقدت الدهشة لساني، وسألته عن السبب باستياء، فطفق يسرد لي بصوته الخافت المهزوز قصتهم الحزينة. قال: إن سكّان القرية ظلوا خمسة عشر عاماً يحاولون الحصول على تصريح من (طهران) لبناء مسجد. لكن طلبهم كان يقابل بالرفض في كل مرة، بحجة أنهم سيعَمّرون مسجداً سنياً.

بعد مضي هذه المدة الطويلة، ضجر سكان القرية، فتجاهلوا السلطات وتحدوها. حيث قام شبابها بالبناء خفية، ضاربين بسياسة (طهران) عرض الحائط، واحتاطوا في تحديهم فعمدوا على جعله بناءً عادياً، فقد تجنبوا تمييزه وتزيينه، وبهذه الطريقة حاولوا إخفاءه.

سار معهم كل شيء على احسن ما يرام. إلا أنه وبعد عدة أسابيع فقط من انتهاء بناء المسجد والصلاة فيه، علمت (طهران) بذلك، ولا أحد يعرف كيف علمت. فقد حضرت قوة أمنية بمدرعات ودبابات إلى القرية. هدمت المسجد وساوته بالأرض، وأنهت إرهابها بإعدام عشرين شاباً اختارتهم بشكل عشوائي، فبعضهم لم تتجاوز أعمارهم العشرين سنة. خرج بعدها مسؤولون في (طهران) يصرحون بوقاحة للإعلام، أن هؤلاء الشباب تم إعدامهم بجرم تجارة المخدرات.

سكت (رسول) فجأة عن الكلام، وكسا المتفرجين صمتٌ أرعبني، وبدأ الخوف يتسلل إلى داخلي بعنف عاصف، فقد وضع العسكر المقنَّعون الحبال حول رقاب البائسين.

أحسستُ أن الصمت الذي غشى المكان حبل موت التف حول عنقي كما طوقت حبال المشانق أعناقهم. تيبس جسدي وجف حلقي. عيناي تسمرت وصار قلبي يخفق بقوة وبسرعة. أنفاسي تناقصت وكأن صخرة انطبقت على صدري فأثقلت روحي التي أدمتها مشاعر الرعب والأحزان.

وأنا على هذه الحالة، لفت انتباهي ذلك العسكري المقنع، من يمسك بالشاب الرابع، الواقف على الحجارة المرصوصة. كان يتأفف بكثرة، وحركاته تدل على تململه وحنقه. تارة يسنده بيده اليمنى ومرة باليسرى، وتارة بكلتا يديه. يتلفت كثيراً، وكثيراً ما كان يُنكِسُ رأسه ناظراً إلى قدميه. وفجأة، وقبل أن يُعطى الأمر بسحب الكراسي. أفلت العسكري الحانق يديه، مبيناً ضجره للجميع، ومعلناً انتهاء صبره وضيق صدره.

ترنح الشاب المسكين، وانهدت الحجارة المرصوفة، وسقط من عليها، فتأرجح معلقاً في الهواء، مرعباً الجميع في ذلك. ومطلقاً صوتاً مفزعاً خرج من حنجرته المرتعشة وكأنه يريد أن يصرخ. لكن حبل الموت الملتف حول عنقه كبت ذلك. احمرَّ وجهه وبان احتقان عروقه. برزت عيناه وكأنهما ستخرجان قذفاً من مكانهما.

مرت خمس دقائق تقريباً ولم يسكن جسده. تتخبط رجلاه ويداه بقوة وكأنه يسبح في الهواء.

ما الذي يحدث؟! لماذا لم يَمُت حتى الآن؟! أهكذا يكون الموت على حبال المشانق؟!

أحسست أن الزمن توقف في لحظة بين حياته وموته. كان يصارع الموت، والموت يصارعه. والجميع ينظرون نحوه بعيون متشنجة. وأجسام تسمرت عن القيام بفعل شيء.

كلهم أصابهم الخوف والذهول، حتى العسكر لم يتمكنوا من إخفاء رعبهم، عندئذ، توجه نحوه عسكري مقنَّع عربيد. الشيطان في هيئته. أمسك الشاب من رجليه وشرع يشدهما نحو الأسفل فسُمع صوت فرقعات تطايرت من رقبته في أرجاء المكان.

صُعق الجميع بفعله، وبدأت حركة خفيفة بين الحشود، وكأن هناك من أراد أن ينتفض معارضاً هذا الفعل الشيطاني الرجيم. انتبه العسكر لذلك، فانتشروا بشكل أكبر وأعنف. وبلحظات فقط سكن جسد الشاب التعيس، فأفلت العسكري اللعين قدميه فتدلت في الهواء ساكنة دون أي اهتزاز.

سمعتُ المرأة العجوز الجالسة أمامنا تقول:

- لن ينزلوه. سيتركونه معلقاً هكذا حتى يتأكدوا من موته.

سبحتُ في عالم آخر. عالم بدهاليز مظلمة وكئيبة. يكلمني (رسول) فلا أشعر به. يهزني ويكرر ذلك ثانية وثالثة. أفيق حاضراً غائباً، وكأن المكان اكتسى بضباب كثيف، فشعرت أني أفقد رؤية الأشياء بوضوح.

- هل أنت بخير؟

- أجل.

- أتريد أن نغادر؟

- لا. بل نكمل ونشاهد.

تمنيتُ أن نغادر المكان. أن نبتعد عن هذا الكابوس المظلم الخانق. لا أعرف وقتها لمَ أجبته بالبقاء؟ ربما أردت أن أبين له صلابتي من عدمها.

لم يمض وقتٌ طويل حتى سُحبت الكراسي الثلاثة. فتخبطت الأجساد في الهواء. عندها زاد إحساسي بالاختناق. ضَعُفَ تنفسي، وشعرت في لحظاتٍ كما لو أني أتنفس لأخر مرة.

قاومت نفسي حتى لا أبكي، ورجوت الله أن تكون هجرتهم سريعة عكس رفيقهم. عندما سكنت أجسادهم بوقت اقصر عكس صاحبهم، تطايرت كلمات الحمد في الهواء متناثرة بين الجموع.

كان الأربعة المتبقون الواقفون والمنتظرون دورهم بلف الحبال حول رقابهم يشاهدون ما يحدث منذ لحظات الموت الأولى. تعذيب وذبح من نوع آخر. يموت الواحد منهم أكثر من مرة وهو يشاهد تلك اللحظات الموحشة التي لا تقدر الكلمات على وصفها. ولو استُخدمت ألسنتهم المكلومة في ذلك. يا لهم من مساكين! يعيشون لحظات البؤس في أبشع صوره!

وقتها توجه ثلاثة من العسكر المقنعين نحو الأجساد المعلقة، ونكزوهم بهروات في أماكن مختلفة من أبدانهم. أجسادهم ساكنة، لم تستجب لشيء. فقط تتدلى عبر الحبال بهدوء مخيف، وسكون أبدي.

قام بعدها ثمانية من هؤلاء العسكر ذوي الأقنعة بإنزالهم بشكل سريع وعشوائي. حيث أخذوهم ورموهم داخل الصندوق المعدني الذي أخرجوهم منه. كل اثنين منهم تعاونوا على جثة. وفي الوقت ذاته قام أربعة مقنَّعون آخرون بجر الدفعة الثانية إلى حبالهم.

حدثت نفسي بحزن وكآبة: منحوس من سيكون حظه الوقوف على الحجارة.

عندها اعتلى ثلاثة منهم الكراسي. رابعهم لم يوقفوه على الحجارة التي أعادوا رصها، بل أوقفوه بجانبها حتى تحين ساعة الهلاك. كان هذا أفضل عمل يقوم به العسكر في ذلك الوقت.

في تلك الأثناء أدهشني اثنان من هؤلاء البؤساء. أهم حمقى؟! يتحدثون مبتسمين وحبال الموت تتمايل راقصة بغنج أمام أعينهم.

فكرت وحدثت نفسي: لم يبقَ في الحسبان إلا هذان المجنونان، ليزيدا روحي المتصدعة تشققات غرابة وذعر بجنونهما، فمن هذا الذي يبتسم وهو يقاد إلى الموت وبظلم أيضاً؟!

اقشعر بدني. ربما شربا فسكرا، فأصبحا لا يعيان ما هما فيه. كان الجميع ينظر لهما بإعجاب، وأنا انظر لهما بخوف! حقاً أرعبوني.

لُفت الحبال حول رقبتيهما، ومازالا يتبادلان الابتسامات، ويوزعانها على المتفرجين. هما مجنونان بلا شك.

اثنان من العسكر رفعا الرجل الرابع وأوقفوه على الحجارة، وعسكري ثالث لف الحبل حول عنقه. لحظات قصيرة تنفسوا فيها ثم عُلقت أجسامهم في الهواء. هنا فقط توقفت ابتسامة المجنونين، واستبدلتها حبال المشانق بلوحة قاتمة من الفزع الذي نقش ظلامه الموحش عليهما، فارضاً ذاته بقوة غلبت على إرادتهما في تغيير شؤمه بسحر ابتسامتهما.

بعد فترة ليست بالطويلة من رقص أجسامهم في الهواء، سكنت وتوقفت عن الحركة، حينئذ، تحرك العسكر على عجل. أنزلوهم ورموهم داخل الصندوق المعدني، فوق الجثث السابقة. ثم فرقوا الحشود وانصرفوا. حدثت نفسي: الآن، سيذهبون بهم إلى مقابر لعنة أباد، وكأن جهنم تقع هناك.

وبتثاقل تحركت المرأة العجوز التي طلبت منا المغادرة منذ اللحظات الأولى. ليتني استمعت لكلامها وغادرتُ المكان. أسندتْ كفيها على الأرض ثم على ركبتيها ووقفت بمساعدة عكازها وهي تردد عونك يا ألله.

عندها قابلها شاب كان من ضمن المتفرجين. سلم عليها وأمسك يمناها المرتعشة وطفق يقودها. مشى بها ببطء وتعابير الشؤم ساكنة في عينيه.

قالت العجوز:

- يرحمهم الله.

رد عليها الشاب بنغمة كئيبة بعد أن بلع ريقه:

- أجزم أن بعضهم لم يموتوا بعد. اختنقوا فغابوا عن الوعي، وانكسرت رقاب بعضهم. قلوبهم يا عمة تحتاج إلى أكثر من عشرين دقيقة حتى تموت اختناقاً.

- لا حول ولا قوة إلا بالله. والله لم يعد هذا الحال يطاق.

- حسبنا الله يا عمة.

- أخذوهم على عجل. حتى بعد أن صارت أجسامهم جثثاً هامدة، ضاقوا بهم.

- عجلهم ليس غريباً. هم خائفون من ردة فعل الناس. غير أنهم سيقومون بإفراغ الأجساد من أعضائها قبل أن تُتلف، فيبيعونها ويتاجرون بها. هذه الجثث أبداً لن تُسلم للأهالي يا عمة. وما أنجس فتاوى شيوخهم التي تبيح هذا الشيء.

اكفهر وجهها ووضعت يدها على قلبها وشرعت تدلكه وكأن الألم اعتصرها بشدة. قالت للشاب بصوت مرتعش:

- أعدموا ولدي ولم يسلموني جسده. تمنيت أن أضمه وأُقبل جبينه قبل أن يختفي تحت التراب.

مروا من أمامنا يسيرون ببطئهم الكئيب. العجوز لم تبالِ بنا هذه المرة أيضاً. الشاب اندهش منا وحدجنا بنظرة متعجبة! وسرعان ما أبعد عينيه عنا ناظراً إلى قدميه يدقق في الطريق الذي يقود العجوز عبره.

من مكاننا البعيد. مكثنا دون حراك للحظات طويلة، نشاهد الناس وهم ينصرفون بحزنهم وكآبتهم. كانت روحي منكسرة ومنهكة. وساقاي غير قادرتين على حملي. جسدي متعب، وحلقي جاف، وكأني مشيت في صحراء بلا زاد ولا ماء حتى أوشكت على الهلاك.

بعد مدة لم يبقَ إلا نحن والصمت المرعب الذي بقي متشبثًا في أرجاء المكان. عندها غادرت مبتعداً، ومبعداً عينيَّ باضطراب حتى لا تتصادم مع عيني (رسول) فيرى الفزع الذي سكنها.

تركته وأنا أبكي في خيالي مرعوباً. يكسيني شؤم لحظات الموت وأوجاعه. وبدوره سكنه الصمت أيضاً فلم يهمس بكلمة. وتركني حبيس نفسي، فانصرفتُ بجسد مثقل، عائداً إلى البيت أجر نفسي بخطىً مرتجفة. أقاوم عنادها كلما اشتد وهنها وتوقفت.

عندما وصلت سلمتُ على أمي بلسان ثقيل، ونغمة كئيبة وغريبة.

- أين كنت؟

- عند (رسول).

انفجرتُ أمامها باكياً، وجسمي يرتجف ويهتز بقوة ومن دون إرادة مني. انفجعتْ، فهبت نحوي والفزع يتطاير من مقلتيها. أجلستني وضمتني وبكت معي وألحت تسألني بصوت متلعثم من الخوف عمّا جرى لي. بعد أن توقفتُ عن بكائي الطويل، أجبتها بصوت غالبت فيه نفسي لأجعل الهدوء يلفه، حتى لا تضطرب روحها أكثر ويلتهب قلبها ألماً من أجلي.

- رأسي يؤلمني. أشعر أني لست بخير.

❖❖❖❖❖

كنت أرى نفسي كبيراً. يداي مقيدتان إلى خلف ظهري بقيد حديدي وعيناي معصوبتان، وأُجر من دون إرادة مني. عسكري عربيد جلف، يقودني بيده الضخمة الملتفة حول عنقي من الخلف. يسير بي بقوة، ويرفعني بعنف كلما سقطت غصباً عني. وعلى كرسي وضع من أجلي. حملني بكلتا يديه وأوقفني عليه بشدة وهو يلعن روحي ويسبني في ديني.

فك العصبة التي حجبت رؤيتي، فكان حبل الموت أول شيء أراه أمام نظري الشاخص. يتدلى بأناقة وكأنه يبتسم لي.

لفه حول رقبتي بخشونة دون أن يضمه. فصار حول عنقي كقلادة. وشعرت أنه يدغدغني بحرارة وشوق ليضُم عنقي. ذُهلت من هذا الإحساس الغريب. يبدو أنه حتى حبال مشانقهم تحن إلى الرقاب لتعصرها. لعنة الله على هذا الحنين.

حشود كثيرة تنظر نحوي بحزن وأسف. أمي بينهم. تبكي وتنتحب بصوت صارخ يعلو الأفق. يمسكانها رجلان عملاقان من ذراعيها ورأسها. رأيتها تتعارك معهما وتبصق عليهما محاولة الإفلات منهما. تصرخ باسمي، وترجوهم أن يدعوني وشأني.

تساءلت مفزوعاً وأنا انظر إليها وإلى عينيها وعيون المتفرجين المتطايرة بالحزن والأسف:

- هل هذه هي نهايتي! الموت وبهذا الشكل!

- ماذا أفعل الآن؟

- هل أتصنع الضعف أم القوة!

- هل أظهر الخوف أم الشجاعة الغائبة!

- هل أبكي أم أبتسم!

الأفكار وحدها تقتلني. أرهقتني كثيراً. فاستسلمت متعباً لقدري البائس. نظرتُ إلى أمي المسكينة ودمعها الساكب. ودعتها بابتسامة ارتسمت في خيالي، في خيالي فقط.

أحكموا الحبل حول عنقي وتأكدوا من ذلك. ومن دون انتظار أكثر. سحبوا الكرسي من تحت قدمي. استيقظت أتخبط على فراشي. أصرخ وأبكي. وأتنفس بصعوبة متلفتاً حولي برعب خانق كحبل المشانق. كان حلماً، بل كابوساً موحشاً ومظلماً.

هرعتْ أمي نحوي مسرعة، وهدَّأت من روعي. وشرعت تقرأ آيات من القرآن بصوت يرتجف من الخوف، ويدها المرتعشة تمسح على رأسي وصدري.

سكنني الخوف أياما وليالٍ عديدة. صرت أختلي بنفسي كثيراً. أشتهي الوحدة وأستلذ العزلة عن كل شيء. وحدتي وسرحاني المتكرر أزعج أمي وأخافها كثيراً. صارت تنظر إلي بحيرة شديدة، وترقبني بصمت.

عندما تسألني عن حالي أتلبك فلا أعرف بماذا أجيبها؟ أحياناً أتصنع المرض، وأحياناً أخرى، أتصنع الضجر. عجزتْ عن معرفة ما بي وعجز أبي وأخي أيضاً. لم تصبر على ما أنا فيه، فقصدت منزل (رسول) دون أن أعلم.

تحدثتْ معه ومع والدته، فأخبرها بتفاصيل ما حدث في ذلك اليوم المشؤوم. هكذا عادت فانفردت بي. أجلستني وبدأت تكلمني بصوتها الحنون:

- أعرف ما حدث معك. لا تجهد روحك، ولا تحمل نفسك فوق طاقتها. هذا هو عالمنا، هذه هي حياتنا، وهذه هي أحوازنا. انسَ أمر ما حدث، ولا تفكر به كثيراً. أنت رجل، فلم تعد صغيراً، وعليك أن تتعود على حياة الموت هذه...

❖❖❖❖❖

8

قصص الأجساد التي عُلقت على حبال المشانق

القصة الأولى

كانا صديقين، بل أخوين. تعاهدا على أن لا يخون أحدهما الآخر، وعزما على أن يحققا أمنيتهما التي أشغلتهما سنين طويلة.

الأول اسمه (جمال)، والآخر (عبدالكريم). متقاربان في العمر، ويعرفان بعضهما منذ فترة طويلة. تجمعهما قواسم مشتركة كثيرة، وإن اختلفا يختلفان بود. فهما محافظان على صداقتهما، ويجدانها كنزاً صعباً أن يعثر عليه إنسان في هذا العالم وخاصة هذا الزمن.

لا يقدسان الحياة. الموت لم يعد يخيفهما. وسيحققان أمنيتهما، مهما كلفهما الأمر، حتى وإن كانت حياتهما ثمناً يدفعانها من أجل ذلك.

في يوم جمعة وبعد صلاتها بالتحديد اجتمعا. خطّطا واتفقا على الموعد، وتحمسا له، وانتظراه بشوق دون خوف أو تردد.

وفي صباح يوم الاثنين من الأسبوع ذاته. تفاجأت إحدى الإدارات الحكومية في (الأحواز) العاصمة بقدوم اثنين من موظفيها «جمال وعبدالكريم» بلبسهما العربي. كانت صورتهما صادمة للجميع، فمن رآهما لم يكن يصدق، أو يستوعب ما يحدث أمام ناظريه. اتجه نحوهما بعض الزملاء بتردد وخوف. نصحوهما بالعودة سريعاً، وخلع ما يرتديانه. حاولوا معهما كثيراً، لكن بلا جدوى، فقد اتخذا قرارهما عن قناعة تامة كما صرحوا لهم.

اتهموهما بالخبالة والجنون، لكنهما لم يباليا بشيء من تهمهم أو من نظرات أعينهم التي سكنها الحزن والخوف عليهما، والتي امتلأت بحيرة واستخفاف عقل لقدومهما إلى عملهما بهذه الهيئة التي لا تبشر بخيرٍ أبداً.

كانا بدورهما يمشيان بثقة كأسدين وابتسامتهما مرسومة على محياهما بعز يصل النجوم، وفخر لا حدود له.

وكثير من زملائهما تجنبوهما، خائفين من أن يقتربوا نحوهما، أو ينصحوهما أو يسلموا عليهما فيتورطوا معهما. اكتفوا فقط بمراقبتهما من بعيد، منتظرين ما سيحدث لهما.

يومها مرت ساعة كاملة وكلهم ينتظرون بقلق ويترقبون بحذر قدوم اللحظات الموحشة، التي أتت على عجل بقوة أمنية. اقتحمت المكان بعنجهية، وتوجهت تبحث عنهما.

عندما وجدوهما اعتدوا عليهما وأهانوهما. قيدوا أيديهما وأخذوهما سحباً عبر السلالم من أرجلهما. وانهالوا عليهما ضرباً مستخدمين في ذلك الهراوات وعقاليهما اللذين كانا يتوجانهما، وانصب المجرمون يقذفون عليهما شتائمهم، مقللين من أصلهما وإنسانيتهما.

وفي سجونهم عذبوهما. اخفوهما لخمسة أعوام، كلٌّ في زنزانة منفردة عن الآخر. بعدها وبمحاكمة سريعة، وبتهمة الترويج للوهابية. تم الحكم عليهما بالإعدام شنقاً أمام المارة.

قال القاضي لهما:

- هناك، أمام الحشود، ستكونان عبرة. بعدها، لن يتجرأ أحد على عمل فعلتكما مرة أخرى مهما بلغت شجاعته وجراءته.

❖❖❖❖❖

القصة الثانية

تزوج بعد عناء وسنين من الانتظار والاستعداد. كان أسعد ما يكون بزواجه وبزوجته. وكأن الدنيا لم تكن تسعه من شدة فرحه، وكأن العالم خالٍ من البؤس والألم. وبعد أسبوع من الحدث الذي انتظره أعوامًا، قرر أن يسافر إلى (طهران) بصحبة زوجته. هناك، سيتسيحان ويزوران بعض الأقارب كما خططا.

سافرا. مساكين. لم يكونا يعلمان أن في (طهران)، قد نسج لهما القدر تفاصيل قاتمة ونهاية مظلمة. حيث ساقتهما الساعات على عجل إلى ذلك اليوم الذي خرجا فيه إلى السوق للتبضع في أحد الأسواق. يومها مرت عقارب الساعة سريعاً وكأنها تسابق نفسها. فأسدل الليل ستاره معلناً انتهاء نهار ذلك اليوم. حينها غدت ليلتهما قمراء، وهواؤها دافئ. فشعرا وكأنهما يسبحان في السماء، وكأنهما عصفوران حران، لا حدود لعالمهما المليء حباً وسعادة.

عندما قررا العودة للفندق الذي ينزلان فيه، أوقفتهم دورية شرطة.

- من هذه التي معك؟

- زوجتي.

ضحك العسكري، وضحك الثلاثة الذين معه، وسأله بتعالٍ متقهقهاً:

- زوجتك؟ وكيف لنا أن نتأكد من ذلك؟

- أقسم بالله إنها زوجتي.

حلف بالله لهما، وحلفت هي أيضاً، لكنهم لم يصدقوهما، فسأل العسكري بتعالٍ متزايد:

- أين الدليل؟ أين عقد زواجكما؟

- في الفندق الذي نقطن فيه.

أكمل الزوج بحنق:

- وليس من المنطق أن أحمل عقد زواجي كلما أردت الخروج مع زوجتي.

- كاذب. أنتما عشيقان. نَجَسٌ. تسرحان وتمرحان، وكأن بلادنا أرض للفحشاء والمنكر. وكأنه لا يوجد من يوقفكما عند حدكما، ويطهر البلد منكما ومن أمثالكم.

- قلت لك، أقسم بالمولى إنها زوجتي.

حاول كثيراً أن يقنعهم، والمسكينة حاولت أيضاً معه.

- اذهب احضر عقد الزواج لنتأكد. أما هي فستظل هنا معنا حتى تعود.

ارتبك. تشتت فكره وثار دماغه بأفكار ممزوجة بشيء من الصراع. كيف سيترك زوجته بمفردها معهم؟! لو كانوا فعلاً يريدون معرفة الحق، لاصطحبوه وزوجته إلى مقر إقامتهما.

نظر اليهم بحيرة وتوجس، وعرض عليهم أن يأخذوه مع زوجته في دورية الشرطة إلى الفندق.

خاطبه العسكري، مستهزئاً، ساخراً:

- وهل نحن خدم عند والديك؟ اذهب الآن، ولا تزد الوضع سوءاً.

لم يكن بيده شيء آخر يفعله. رمق زوجته بخوف، فبادلته النظر بعيون ملأها الاطمئنان وابتسامة ارتسم الحب عليها بخجل فاضح. أخْبَرَتْهُ أن يذهب، فغادر المكان مسرعاً، متوتراً والأفكار تتزاحم متصارعة في رأسه.

غاب نصف ساعة. عاد بعدها فانصعق وانفجع. وجد زوجته تبكي في داخل الدورية. اقترب منها مفزوعاً، ونظر إليها بخوف، فرأى علامات ضرب على وجهها، ودم يسيل من فمها وأنفها. وأجزاء من عباءتها وملابسها ممزقة.

جن جنونه. وثارت ثائرته، وتشنجت جميع أعضاء جسمه. اشتعلت عيناه بنار الغضب وامتزجت بقهر أليم. بدورهم كانوا يدخنون بجانبه. وينظرون إليه بلا مبالاة. يتحدثون بهمس، وتتعالى أصواتهم بالضحك. وكأن شيئاً لم يكن.

اقترب منهم بجنون، وأمسك بأقربهم إليه. لف ذراعه حول عنقه وهمَّ بخنقه. فاسرع الثلاثة الآخرون بإنقاذ صاحبهم.

مسكوه وكبلوه، وشرعوا ينهالون عليه بالضرب والتسفيه. لم يتمكن بعدها من فعل شيء إلا شتمهم ولعنهم. والبكاء قهراً وألماً.

اعتقلوه بتهمة نشر الرذيلة والتعدي على رجل أمن. وهناك. في سجونهم. مكث سنة لم تخلُ من التعذيب. وبمحاكمة سريعة، حكم عليه القاضي بالإعدام شنقاً أمام المارة.

قال له القاضي معنفاً:

- أنت خطرٌ على المجتمع، ولا يمكن لك أن تعيش فيه، خاصة أننا في وقت نسعى فيه لخلق مجتمع ملائكي. نابذين الخبيث من البشر تحت التراب.

قررت المحكمة أن يكون إعدامه في مدينته، في (الأحواز) العاصمة. كي يكون عبرة لكل من تسول له نفسه القدوم إلى (طهران) لنشر الفسق وإثارة الفوضى بالاعتداء على رجال الأمن.

❖❖❖❖❖

القصة الثالثة

كاد أن يطير (مهدي) من الفرح عندما علم أن زوجته حامل بأول مولود له. اشتد حماسه وزاد أمله، واهتمامه بزوجته لم يتوقف طيلة أشهر حملها. لا يضايقها، ويتجنب أن يخاصمها. وينتظر بفارغ الصبر انقضاء فترة حملها.

كان لا يمر يوم عليه إلا ويحضر معه شيء من أجل المولود المنتظر. الذي لم يكن يهتم بجنسه، فسيسميه (أحمد) إن كان ولداً، وان كانت فتاة سيختار (الزهراء) اسماً لها.

هكذا خطط مع زوجته، والحب يملأ عينيه والفرحة تنبعث من شفتيه وهو يتحدث بحماس وشوق يكاد ألّا يوصف.

في المشفى ساعة الولادة، أخبره الأطباء بوجوب خضوع زوجته لعملية قيصرية. قالوا له:

- الحوض صغير، ورأس الطفل لا يمكن أن يخرج بولادة طبيعية. لذلك يجب أن تخضع زوجتك لعملية قيصرية.

خاف وارتعدت فرائصه. لم يجد سبيلاً آخر فوافقهم بتردد. وعندما أدخلوا زوجته إلى غرفة العمليات. خفق قلبه بعنف، وظل يجوب الرواق المؤدي لباب العمليات ذهاباً وإياباً وهو يهذي

كالمجانين. يذكر الله ويدعوه كثيراً، وتسوّد الدنيا بوجهه كلما أخذه تفكيره لنتائج سلبية، لم يتمكن، آنذاك، من مقاومتها، فتلألأت عيناه بالدموع المحتبسة بين مآقيه.

انتظر برعبٍ وقلق، فشعر وكأن الدقائق تمر به كأيام عجاف. عندما خرج الطبيب. بشره بانتهاء العملية على خير.

قال له:

- المولود بصحة جيدة، وزوجتك أيضاً.

عندها أطلق لدموعه المحبوسة حريتها، ففاضت منسكبة على خديه بغزارة. وشكر الطبيب باكياً بدموع فرح انهمرت حتى بللت صدره المكلوم.

أنجبت زوجته صبية كأنها فلقة من القمر. أسماها (الزهراء) كما خطط سابقاً.

بعد ثلاثة أعوام، أراد طفلاً آخر، لكن ولمدة عامين لم يتحقق له ما أراد، فراجع طبيباً مع زوجته. عندها فجعه حديث الطبيب. حيث قال له، بعد أن عاينه وعاين زوجته:

- أنت ليس فيك شيء.

- الحمد لله. ماذا عن زوجتي؟

- للأسف، السبب من جانبها.

اتسعتْ عيناه غرابة، وضاق صدر زوجته كآبة. فسألتْ الطبيب بحيرة وخوف:

- أنا السبب. ماذا بي؟!

أسكتها زوجها بنظرة غاضبة لتدخلها، وأعاد هو سؤالها للطبيب:

- ماذا بها؟

أخذ الطبيب نفساً عميقاً وقال:

- ليس هناك رحم.

حدق مهدي الطبيب بعيون ملؤها الاندهاش، وارتسمتْ على خديه ابتسامة تكذّب ما قاله. ثم أخذ زوجته وغادر قائلاً لها:

- هذا الطبيب لا يفقه شيئاً. سنذهب لواحدٍ آخر.

توجه المسكين بزوجته لثلاثة أطباء، وجميعهم أفادوا له بالنتيجة نفسها.

قالوا له:

- تقارير جهاز التلفزيون المكررة، تفيد أن زوجتك بلا رحم. هذه حقيقة حتمية. يجب عليك أن تتقبلها.

جمد الدم في عروقه. وغرق في دوامة مليئة بالحيرة والغرابة. أسئلة كثيرة تطايرت من رأسه فتبخرت في الهواء دون أن يجد لها أية إجابة.

بعد تفكير وبحث عميق، علم أن الأطباء ساعة ولادة (الزهراء)، أثناء العملية القيصرية. قاموا بإزالة رحم زوجته.

- يريدون أن يحدوا من النسل العربي. أنجاس.

هذا ما تكلم به رجلٌ في همس لـ (مهدي)، التقاه عندما ذهب يقدم شكوى ضد المشفى والأطباء. أكمل الرجل حديثه الهامس قائلاً بصوت امتزج بالألم:

- أصبحت زوجتي عقيماً. حقنوها بعقاقير أدت إلى ذلك أثناء مراجعتها للمركز الصحي في منطقتنا.

سأله (مهدي) مندهشاً:

- ماذا؟!

- سمعتُ أيضاً أن الأنجاس قاموا بحقن فتيات في سن البلوغ بهذه العقاقير. قلت لك. يحاولون الحد من النسل العربي. وما خفي كان أعظم.

توادعا دون أن يتعارفا. سأل (مهدي) نفسه متحيراً: ما الذي يريدونه منا؟! أكمل إجراءات تقديم شكواه، وانتظر بعدها وتابع دون فائدة. فشكواه تكدست مع شكاوى آخرين غيره. عندها لم يسكت ولم يستسلم وما وضع يده على خده ينتظر ما لم يحدث، فسلك طريقاً آخر، وشرع يشكي ويحكي مسلطاً ضوء الإعلام على ما أصاب زوجته.

طريقه هذا جعل الموت يحوم حوله كالهواء الذي يتنفسه، فحاولت زوجته أن تثنيه عن انتفاضته. قالت له والخوف يتطاير عليه من عينيها:

- حبال مشانقهم، لا تفرق بين مظلوم وظالم.

لم يسمع لها. تجاهلها وزادت عزيمته. وشرع يفتح ملفات عدة، محاولاً فضحهم بشتى الطرق الممكنة. هكذا قبضوا عليه، فمكث في السجن سبعة أشهر.

في المرة الوحيدة التي تمكن فيها أخوه من زيارته، شكا له عن ضرب وحرق تعرض له. كشف له عن صدره وظهره وفخذيه وأراه آثار سلخ وثقوب تم عملها بالدرل.

عندما حاكموه، اتهموه بتلفيق التهم ونشر الأكاذيب، وسعيه لزعزعة استقرار المجتمع.

قال له القاضي:

- أنت فتنة. جاسوس. ومتخابر مع دول أجنبية.

بهذه التهم حكموا عليه بالإعدام شنقاً أمام الناس.

❖❖❖❖❖

القصة الرابعة

(رحمة) امرأة تجاوزت الخامسة والأربعين من عمرها. تكافح من أجل إعالة أبنائها ببيع الورد والأكاليل لزوار المقابر. اعتقِل زوجها أبو (يونس) قبل تسعة أعوام. تشاجره مع مستوطن فارسي هو السبب. لم يُرد أن يبيع له بعض الفواكه من بسطته، فحنق الفارسي، وشرع ينهال على الفاكهة يخطفها بيديه ويرمي بها إلى الشارع. اغتاظ أبو (يونس) فلكمه حتى أسقطه على الأرض، فقدم الفارسي شكوى ضده في أقرب قسم شرطة وجده، وسرعان ما حضرت قوة أمنية، اعتقلت أبو (يونس) وحجزت على بسطته.

بعد اعتقاله بعام. لم يعد أهله يعرفون عنه شيئاً. كانوا يعرفون مكانه في أول عام دخل السجن فيه. وقتها تمكنوا من زيارته ثلاث مرات فقط. أما الآن فتفيد الأخبار التي تصلهم أنه ما يزال على قيد الحياة، مرمياً في معتقلاتهم المخفية.

لـ (رحمة) أربعة أبناء: ولد وثلاث فتيات. الولد (يونس) أكبرهم. شاب تجاوز العشرين من عمره. لا يعمل. يسرق فقط. يسرق من أمه ومن الناس. يتمشكل مع الجميع. وكثيراً ما يشتكي الناس منه ومن أفعاله السيئة. يغيب عن البيت أياماً وأسابيع، ويعود فقط إن احتاج مالاً.

يضيق صدر أمه من أجله. تخاف عليه وترتعب من أن يلقى مصير والده بسبب أفعاله السيئة. عندما تنصحه لا يستجيب لنصحها، وإن بكت أمامه، لا تجد دموعها الحارقة طريقاً إلى قلبه المتحجر.

❖❖❖❖❖

في يوم جمعة، اعُتقلت أمه مع نساء أخريات كن يبعن بجانبها الورد والأكاليل. مظاهرة مرت من أمامهن كانت السبب في ذلك.

أثناء التحقيق معها لم يصدقوا أنها بائعة ورد لا دخل لها في شيء، فقط امرأة فقيرة معدومة، تكافح من أجل الخبز لها ولأولادها.

مكثت معتقلة لأربعة أيام. وخلال هذه المدة القصيرة حققوا معها بعنف وعذبوها حتى فاضت روحها إلى السماء مع أخريات غيرها. فالبائسات لم يكن عندهن القدرة لتحمل الإهانات، والجلد والحرق الذي تعرضن له. في اليوم الخامس وجدها بعض الناس مرمية جثة طافية مع نساء أخريات في نهر كارون.

احتفظ (يونس) بحزنه لنفسه. كتم غيظه وأخفى قهره، وشرع ينتقم بتصيد رجال الشرطة ودورياتهم بعد حلول الظلام.

في النهار كان يجمع معلومات عن تحركاتهم وأماكن تواجدهم. يرقبهم بعيون صقر لساعات طويلة. لا يفتر من الانتظار ولا يمل،

فدمه يثور غضباً في عروق بدنه المتشنج من الغيظ والقهر.

في تلك الأيام الكئيبة والمشبعة بالأحزان كأرض لم تزرها الشمس فاكتست بالظلام في ليلها ونهارها معاً، بدأت الأخبار بالانتشار، فتردد اسمه المجهول على الشفاه (مقتل رجل أمن في ظروف غامضة كان متجهاً إلى منزله بعد أن أنهى دوام عمله، شاب مجهول أحرق دورية شرطة بعد أن رمى عليها ثلاث قوارير محترقة مليئة بالبترول، وشخص مجهول يغرز سكيناً في ظهر رجلٍ ينتمي لقوات الباسيج ويلوذ بالفرار)

❖❖❖❖❖

في عصر يوم خميس جلس (يونس) يرقب إحدى الدوريات، ويضع لها مخططاً في خياله لإحراقها. جهز عدته من قوارير ملأها بالبترول وأخفاها داخل قرطاس أسود غليظ ومقدحة وضعها في جيب قميصه.

كان يرتدي قميصاً وبنطالاً بلون أسود. اختار هذا اللون حزناً على أمه من جهة وكي يساعده في التخفي بين طيات الظلام لتنفيذ انتقامه من جهة أخرى.

مضى نهار ذلك اليوم يزحف رويداً رويداً، وضوء الشمس ينحسر في هدوء حتى كسا الدنيا الظلام، فاقترب من الدورية يسير نحوها كطيف من الخيال.

أخرج ثلاث قوارير من القرطاس الذي لم يكن داخله شيء غيرها. وحشا كل واحدة منها بقطعة قماش بعد أن بللها بالبترول، ثم غطى وجهه بقطعة قماش أسود فصار كأنه قطعة من الظلام المحيط به.

أخرج المقدحة من جيب قميصه وطفق يحرق القماش الذي يصل بين فم القارورة وبطنها. أشعل القوارير كلها، وشرع يرمي بها على الدورية الواحدة تلو الأخرى دون تفكير أو تردد، فانهالت القوارير وكأنها شهب سقطت من السماء. ثم انصرف يسابق الريح في ركضه عبر طريق رسمه لنفسه سابقاً ليهرب منه مختفياً عن المكان.

وقتها فاجأته دورية أخرى، حضرت للمكان بغته. توجهت نحوه بعجلات لم يتمكن من الابتعاد عنها. ومع الرصاص الذي أطلقوه باتجاهه بنية قتله لم يتمكن من الخلاص. أصابوه في قدمه. فسقط مُتأوهاً يتوجع. حاول أن يسحب جسده بعيداً عنهم، لكنهم كانوا أسرع منه. تجمعوا حوله وبدؤوا ينهالون عليه خبطاً ودقاً بهراواتهم. ضربهم له تركز على رأسه وظهره. فتغسل بدمه وتمرغ. ثم رموه لداخل الدورية كجثة هامدة.

عالجوه فتعافى بعد ستة أشهر، عندئذ، وجدوها فرصة للانتقام منه. شرعوا بتعذيبه. وتلذذوا في ذلك. نزعوا أظافره، ودقوا المسامير في يديه وقدميه.

صراخه ومعاناته زادا من استمتاعهم، فاحرقوا أفخاذه، وسلخوا جلد صدره، وتفننوا في ذلك. قطعوا أصابع يديه. كل يوم كانوا يقُصّون إصبعاً. بعد عشرة أيام انتقلوا لقطع أصابع قدميه.

بقي في جحيمهم هكذا يعاني سبعة أعوام. مسجونًا في زنزانة انفرادية، حفرة تحت الأرض، مساحتها ثلاثة أمتار في متر. كانوا يعذبونه ثم يعالجونه، ثم يعودون لتعذيبه مرة أخرى وهكذا. بعدها حكموا عليه بالإعدام أمام المارة.

قال له القاضي:

- أنت إرهابي، وإعدامك أمام الناس سيردع الإرهابيين أمثالك.

فرح بالحكم مبتسماً، ودعا الله أن تكون هجرته سريعة.

❖❖❖❖❖

القصة الخامسة

يضيق صدر الأستاذ (ناظم) كلما توجه إلى عمله في إحدى مدارس (الأحواز) العاصمة، فهو يكره أن يشرح لطلابه بالفارسية، وتتزاحم الحسرات في صدره، خاصة عندما يرى تخبط الطلاب العرب، وأن لا فرق بينهم والكراسي.

يتمنى في نفسه أن يشرح بالعربية. يفعلها أوقاتًا متجاهلاً القوانين المانعة وراميها عرض الحائط، فحذره المدير مرارً وتكراراً من فعل ذلك. حيث نبهه بغضب قائلاً:

- سيتم فصلك، ولن تعمل بعدها معلماً. أقسم لك أنه لن تقبلك مدرسة في (ايران) كلها.

أصبح لا يدري ماذا يصنع؟ يكاد أن ينفجر قهراً وغيظاً في كل يوم يتنفس فيه. فبين يوم وآخر يلاحظ الطلاب العرب في تناقص مستمر، وأبناء المستوطنين الفرس يحلون محلهم بشكل أكبر. ويلاحظ أيضاً انخفاض الأساتذة العرب، فإدارة التعليم ترسلهم إلى أقاليم إيرانية أخرى. ويحلون محلهم أساتذة فرس، أو معلمون من تلك الأقاليم. كان عجزه يخنقه، فيكره نفسه لعدم قدرته على فعل شيء.

يوماً استدعاه المدير وحدثه قائلاً:

- تم نقلك إلى مدينة (مهاباد).

قال هذا ثم مد له بورقة وأكمل قائلاً:

- خُذ. هذا قرار نقلك.

اسود وجه الأستاذ (ناظم) فسأل المدير مغتاظاً:

- لماذا؟

نظر إليه المدير بعينين ناعستين، وأجابه متهكماً:

- لماذا؟ لا أعلم.

- من سيحل مكاني؟!

- بالطبع معلم آخر. غداً سيأتي من مدينة (مشهد).

عصر الأستاذ (ناظم) ورقة قرار نقله في يده، وتمنى لو يمزقها. وعندما هم بالخروج. أوقفه المدير منبهاً:

- يجب عليك أن تسافر في فترة أقصاها أسبوع. ستُفصل إن تأخرت.

خرج كئيباً مثقلاً، وعاد إلى بيته مهموماً. في اليوم التالي توجه إلى إدارة التعليم. حاول أن يلغي قرار نقله، لكنه لم يفلح، فاستسلم منكسراً، وسافر إلى مدينة مهاباد مكرهاً.

هناك مكث ثلاثة أعوام في إحدى مدارس المدينة. صابَرَ نفسه، وحاول بشتى الطرق إعادة عمله إلى (الأحواز)، لكنه كان يعجز في كل مرة. طفح الكيل به، فترك التعليم، وعاد إلى (الأحواز). هناك

فتح دكاناً صغيراً لبيع المواد الغذائية يترزق منه، وشرع ينشط ضد التفريس.

كتب قصائد عربية، وترجمها للفارسية، ومن خلالها حارب سياسة التفريس وافتخر بالهوية العربية أيما افتخار. وشرع ينشر قصائده بطرق مختلفة.

خرج في مظاهرات عدة، رافعا صوته صارخاً، ملقياً العديد من الكلمات والشعارات من دون أن يتسلل الخوف إلى قلبه أو تردعه رسائل التهديد التي كان يتلقاها بين يوم وآخر.

فجأة اختفى، فناشدت أسرته السلطات للكشف عن مكانه. بعد عدة أشهر أفصحوا عن اعتقاله، ولم يسمحوا لأحد من أسرته بزيارته أو رؤيته ولو للحظات عابرة.

عندما أتى موعد محاكمته أخذوه إلى محكمة السجن على عجل، وحاكموه في عشر دقائق فقط.

قال له القاضي بعد أن تلا عليه ما قيل أنها جرائمه:

- أنت تحارب الله ورسوله، وتعادي ولاية الفقيه. مكانك ليس فوق الأرض بل تحتها.

هكذا حكموا عليه بالموت شنقاً أمام المارة ليكون عبرة.

❖❖❖❖❖

القصة السادسة

أنجب الحاج (كاظم) ولداً ولم ينجب غيره. اتخذ له اسم (يحيى)، وتوسم فيه الخير والصلاح، فاهتم به منذ نعومة أظافره، حيث شرع بتعليمه وتدريسه العلوم الشرعية بجهدٍ وصبر وأمل.

سارت الأيام بـ(يحيى) والسنون حتى صار شاباً، فكان محبوباً، وذا قلب طيب وكبير. يسحر الناس بأخلاقه وحسن تعامله. ولأنه وحيد أبيه، فقد عمد الحاج (كاظم) على تزويجه في سنٍّ مبكرة. فمرت عليه وعلى زوجه الأيام والليالي في محبة ومودة وراحة بال.

عندما أنجب (يحيى) ولده الثاني، ترك مزرعة والده وشرع يدعو إلى الله، متوجهاً إلى مدن (الأحواز) المختلفة، يلقي خطباً ومحاضرات في المساجد والأسواق.

بعدها انتقل إلى (طهران)، هناك أيضاً دعا إلى طريق الله، ثم توجه إلى (قُم) و(مشهد) والى أقاليم إيران المختلفة. يدعو بهمة وعزيمة، فيشعر أنه في الجنة عندما يقوم بفعل ذلك.

كان يعود إلى أهله مرة في كل شهر. يمكث بقربهم ثلاثة أيام، ثم يغادر ثانية، بلا كلل ولا ملل. وكانت المخابرات ترقب تحركاته ونشاطه الدعوي، جزموا أنه جزء من خلية سرية، وجماعة إرهابية.

استمرت رقابتهم ثلاثة أعوام، لكنهم لم يصلوا إلى شيء، فاعتقلوه سحباً من لحيته، وحققوا معه بجلافة.

- لصالح من تعمل؟

- لصالح الله.

- من وراءك؟ من هي الجهة ألتي تحرضك؟

- أعمل وحدي. الدعوة إلى الله لا تحتاج إلى تفويض من أحد.

عذبوه. نتفوا شعر ذقنه، وتسلوا بذلك. أحرقوه بصب الماء الساخن والزيت على رأسه وبدنه، فاحمر جلده وانسلخ، وتقفز بين أنظارهم وهو يصرخ باكياً من شدة الألم.

- ألا تريد أن تعترف؟

- أعترف بماذا؟

- نريد أسماء، أسماء فقط.

- أسماء من؟

- من تعمل لصالحهم. سنتعاون معك إن أفصحت واعترفت.

- أقسم بما أعبد. أني لست محرضاً من أحد. أعمل وحدي، وأدعو إلى الله حباً. ما الجرم في ذلك؟

- رأسك يابس. ستندم إن لم تتكلم.

- لن تجدوا مني أكثر مما قلت لكم. هذه حقيقتي. وأنتم وما تريدون إن لم تصدقوني.

أحرقوا شعر رأسه. نتفوا حاجبيه. حرموه من الصلاة والنوم. قيدوا يديه بحبل. وربطوا طرف الحبل الثاني إلى خلف سيارة. فسارت به السيارة تسحبه فوق تراب وحجارة خشنة وضعت من أجله حول باحة السجن. وهم يراقبونه ويضحكون متسلين بذلك.

تقشر جلده ودمي بدنه. ثم شرعوا بقطع لسانه وإخاطة فمه. فعصر الألم قلبه وتمنى أن يموت ليلقى الله سريعاً.

حققوا معه ثانية. وضعوا أمامه قلماً وورقة بيضاء ليكتب فيها اعترافاته. لم يصلوا منه لشيء غير جملته الوحيدة التي كان يكرر كتابتها في كل ورقة يقدمونها إليه (حسبي الله. هو ربي ومولاي). فعذبوه وكأنهم يخترعون أساليب جديدة. رغم ذلك لم يخرجوا منه بنتيجة. فاحضروا له ورقة. وطلبوا منه أن يبصم عليها. سألهم بصوت مهمهم وبتقاسيم وجه مستفسرة عن ماذا يبصم؟

أجابوه:

- الموافقة على إعدامك.

بصم عليها فرحاً مبتهجاً. كانت تهمته بسيطة عليهم. محاربة الله ورسوله والترويج للوهابية.

❖❖❖❖❖

القصة السابعة

جهزت له زوجته حقيبة سفره في مساء يوم الثلاثاء. غداً سيغادر إلى مدينة (قُم). هناك سيعمل بائعاً في محل سجاد كما وعده أحد أصدقائه الكرد.

قبل سفره بساعة ودع زوجته وأبناءه: زين العابدين وأم كلثوم وعبدالله. (زين العابدين) أكبرهم، عمره خمسة عشر ربيعاً. وقتها أوصاه والده بأمه وإخوته.

قال له بحزم:

- أنت رجل البيت الآن. فلا تُخَيب ظني فيك.

انتشى زين افتخاراً. هو رجل البيت الآن. ودع أباه، وباشر يخطط بحماس منقطع النظير كيف سيتحمل المسؤولية في غياب والده.

بعد سفر والده بعشرين يوماً. حضرت إلى حيهم جرافة مصحوبة بقوة أمنية. سيهدمون عشرة منازل بحجة محاربة العشوائية واستثمار الأرض لتحسين اقتصاد البلد كما أفاد بيان الهدم.

منزل يعقوب (والد زين) أحد هذه المنازل البائسة. انتفض سكان المنازل محتجين. أين سيذهبون؟ فهكذا سيتشردون.

أجابهم مسؤول البلدية ببرود قائلاً:

- هذا ليس شغلي.

هددهم. إن قاوموا سيكون هناك أكثر من هدم المنازل . عندها شرعت الجرافة بهدم أول منزل، وانتقلت بعدها إلى الثاني. بعد أن ساوته بالأرض، توجهت إلى الثالث وهكذا.

كان الناس ينظرون بألم صامت. يبكون بهدوء، ويشتكون لبعضهم البعض بعجز موجع. من كان يقف منهم أمام الجرافة، إن كانت امرأة تُضرب ويرمى بها بعيداً، وإن كان رجل يُضرب ويعتقل.

وقف (زين) بعيداً يشاهد ما يحدث بتوتر وغضب اشتعل من عينين كليلتين. عندما اقتربت الجرافة من منزله، هب يرشقها بالحجارة بشكل متسارع حتى شج رأس السائق فتوقفت الجرافة، وواصل دون خوف رميها بلا توقف. تسلل نحوه رجلان من العسكر. باغتوه من الخلف وأمسكوا به. ضربوه بحقد حتى دمي ولم يقوَ على الوقوف ثم رموه إلى داخل الدورية.

عبثاً حاولت أمه المسكينة أن يتركوه وشأنه. ترجتهم كثيراً فشتموها وضربوها من دون تردد وهددوا باعتقالها. بكى (زين) في مكانه بصمت وألم وهو يشاهد أمه تُضرب وبيتهم يهدم ويصبح ذكرى في خياله. احتقر نفسه ولامها كثيراً، الآن سيخيب ظن والده به. وتنهدُّ الفتوة المرسومة عنه في ذهنه. كما انهدّ البيت وأصبح جزءاً من الماضي.

❖❖❖❖❖

عندما انتقلت الجرافة إلى آخر منزل. وقف (موسى) ذو الثاني عشر ربيعاً بعيداً كما وقف (زين)، وطفق يرشق الجرافة بالحجارة، ويرشق الشرطة معها باندفاع ليس له حدود.

رغم ما حدث لـ(زين)، لم يجد الخوف له طريقاً إلى داخل روح (موسى) ولم يتردد الولد المسكين بالدفاع عن مسكنه.

ساعتها اضطرب العسكر، فانفضوا هاربين كسرب من الدجاج، واحتموا خلف الجرافة، ثم شرعوا يطلقون عليه الرصاص بحقد ومن دون ارتداع. فوقع المسكين صريعاً. أنهته رصاصة فجرت رأسه فتطاير دمه وانتثرت قطع صغيرة من اللحم في أرجاء المكان.

❖❖❖❖❖

عاد (يعقوب) إلى (الأحواز) مفزوعاً فور سماعه الخبر المؤسف. لم يحزن على منزله أكثر من خوفه على ولده. عندما حاول إخراجه من المعتقل، سألهم بقهر:

- هو طفل، ما جرمه؟

أجابوه:

- الطفل يكبر، وجينات الإرهاب تسبح في دمه.

عرض لهم نفسه بديلاً عنه، لكنهم لم يقبلوا بعرضه الذي اعتقد في نفسه أنه سخي وأنهم سيقبلون به دون أي تردد.

وكَّل محامياً وترجاه أن يساعده. هو الآخر لم يقدر على فعل شيء، فاعتذر له متأسفاً. توجه إلى محامٍ آخر علَّه يتمكن من فعل شيء أو يجد له حلاً يخرجه من دنيا الشقاء التي أسرته وأحاطته بالبؤس من كل جانب. لكن المحامي قال له بأسى:

- ليس هناك شيء يمكن أن نفعله. سيعدمونه. وإن لم يفعلوا ذلك سينتظرون حتى يصل عمره ثمانية عشر عاماً ثم يشنقوه. هذا أفضل ما يقومون به. (أضاف) هكذا فعلوا بأولاد كثر. ولدك ليس الوحيد.

أحس أنه سيفقد عقله. سأل نفسه المقهورة: لماذا يعدمونه؟ أولم يكتفوا بهدم المنازل وتشريدنا؟!

بدأ يشكي للناس مصيبته، ويبحث عن رجل له نفوذ قد يساعده. سيرشيه بكل ما يملك إن أخرج له ولده.

مر عام ببطء وكرب وهو يبحث عن حل لما أصابه وأصاب ولده. هزل جسده كمداً، وعصره الضمور حزناً، وخنقه الألم قهراً وشقاءً. فالمسكين لم يجد حلاً ولم يتمكن من رؤية ولده البائس ولو لمرة واحدة، فقد رفضوا جميع محاولاته اليائسة ورجاءه المتكرر لزيارته.

فكر. فتراءت له فكرة زارته كالطيف في ظلام الليل فجافاه النوم وأخذت وقتا وحيزاً كبيراً داخل رأسه يصارعها وتصارعه حتى استسلم لها واقتنع بها أيما اقتناع.

في اليوم التالي عزم على تنفيذها. أخفى سكيناً خلف ظهره، تحت قميصه. وتوجه لمخفر الشرطة مصمماً على تنفيذ فكرته مع خوف تسلل ببطء لداخله من خذلان نفسه له. وصل للمخفر فدخل على الضابط المسؤول هناك بنوايا انتقامية.

استهل يترجاه لأن يفعل شيئاً، وتوسل إليه متوجهاً نحو يده وركبته يقبلهما برجاء واستعطاف. ولحظتها حاول رشوته، ففلح في ذلك بعد أن عانى من تزمت وتكبر الضابط المتعالي، ليعده الضابط بعدها بفعل كل ما يقدر عليه وطمأن روحه أن لا يقلق البتة. فهو سيخرج له ولده كما تخرج الشعرة من العجين. هكذا قال له بحماس وثقة متناهية. خرج بعدها متأملاً خيراً، حامداً الله أنه لم يرتكب جرماً بالسكين التي معه.

مرت عليه ستة أشهر، يتابع فيها الضابط في كل يوم، حتى اغتاظ الضابط منه واعتصر الغضب روحهُ واشتد حنقه، فقد كان يتأفف في وجهه كلما راه، نافراً منه ومن النظر إليه أو الاستماع له.

عرف بعدها أن الضابط خدعه. سرقه وتلاعب به وبمشاعره. فعاودته فكرته القديمة، وأخفى السكين ذاتها تحت قميصه من خلف ظهره، متوجهاً نحو المخفر بنوايا انتقامية متزايدة، والغضب يتطاير كالشرار من عينيه المقهورتين.

يومها دخل لمكتب الضابط مجهزاً نفسه. فتضجر الضابط منه وانزعج أثناء رؤيته، وهدده قائلاً:

- سأزج بك في السجن. هناك لن ترى الشمس مرة ثانية، وأعدك بذلك. انصرف ولا تعد إليَّ مرة أخرى.

ابتسم له (يعقوب) واقترب منه بهدوء. صوب نظره إلى موقع قلبه. أخرج السكين من خلف ظهره بحركة خفيفة، وغرزها سريعاً في صدره، فاستقرت في داخل قلبه، ثم عصرها مراراً وتكراراً حتى وقع الضابط صريعاً جثة هامدة. عندها ابتسم له (يعقوب) وخاطبه براحة بال قائلاً:

- الآن اذبحوا ولدي واذبحوني معه. لم يعد يُهِم، فقد أخذت بثأري.

قبضوا عليه، وبعد ستة أعوام من التعذيب، حكموا عليه بالموت على حبال المشانق.

❖❖❖❖❖

إن كلام غاندي وأشعار هوجو..

أشرف مما جاء في القران،،

أقسم بك يا إلهي، يا رب الحب..

أن تنقذ بلاد فارس من البلاء العربي،،

(مصطفى بادكوبيه)

9

الرجل الغاضب

يملك الشيخ علي قهوة على بعد خمس مائة متر من بيتنا. هو رجل طاعن في السن، تجاوز السبعين سنة من عمره. منذ عرفته وهو يرتدي اللباس العربي.

في السابق، وبسبب زيه، تعرض للاعتقالات مرات عدة. ولأن لديه أقارب يعملون تحت مظلة النظام، فقد كان يخرج من محبسه في كل مرة يُزَج فيها. أما الآن ولكبر سنه، وبسبب أقاربه أيضاً، تركته السلطات وشأنه كما أخبرني أبي.

معظم الكبار في حينا يذهبون بشكل شبه يومي إلى قهوته. يشربون الشاي ويلعبون على الطاولة. أبي يذهب أيضاً، وأحياناً كان يصحبني معه.

مرة وأنا في القهوة، جالس بجانب أبي على طاولة صغيرة مستديرة، دخل علينا رجل بخطوات كبيرة وسريعة، وعلامات الغضب بادية على محياه المتجهم. من على الطاولة المقابلة لنا،

حرك كرسي بسخط، وجلس عليه بحنق، وشرع يتحدث بصوت فيه غضب:

- قطع الفرس أرزاقنا . ألوف من النخيل ماتت.

(أحمد) هو العامل الذي يقوم على خدمة الزبائن. قدم كوب شاي للرجل الغاضب، وضعه أمامه وانصرف. أخذ الرجل رشفة من شايه ثم أكمل حديثه بانفعال متزايد قائلاً:

- ثلاثين كيلو متر من الأراضي الزراعية بارت. لم تعد صالحة للزراعة.

كان يتحدث للجميع، رافعاً صوته، وصارخاً على كُلِّ من حوله. حينها خاطبه أحدهم كان يهم بدفع حساب مشروبه. قال له بصوت هادئ:

- الصبر يا (محسن). إن الله مع الصابرين.

دفع الرجل حسابه وانصرف دون أن يلتفت وراءه، أو يهتم برد الرجل الغاضب (محسن) له. حيث زادت نرفزته وعصبيته، فخبط يده بقوة على الطاولة حتى تطاير الشاي من كوبه، وفَزَّ جميع من في القهوة، وقال بغيظٍ مشتعل:

- إلى متى نصبر؟ تقصد نموت جوعاً! أراضينا تموت، ونحن أيضاً نموت، ثم تأتي أنت وتقول نصبر.

لم يرد عليه أحد. التزم الجميع الصمت، وغشى السكون المكان. هو أيضاً توقف عن الحديث، وسرح وحده يقلب عينيه وكأنه يتحدث مع نفسه المكسورة.

أنهى شرب شايه ببطء شديد، ثم خرج يمشي على مهل حائراً شارداً عكس ما دخل.

سألت أبي:

- ماذا به؟ وعن ماذا يتحدث؟

يومها حكى لي أبي عن ألوف أطنان من الملح تقوم السلطات بإضافتها لأنهار (الأحواز)، التي يتم من خلالها سقاية الأراضي الزراعية.

قال لي:

- هذا الأسلوب القذر، واحد من أساليب عدة تقوم بها السلطات لتدمير الأرض ونشر البطالة بين الناس.

حكى لي أيضاً، عن مصانع البتروكيماويات، التي تم بتعمد إنشاءها بجانب الأنهار. حيث وجدت هذه المصانع، أنهار (الأحواز) مكاناً بديلاً لتكب فيها فضلاتها.

❖❖❖❖❖

10

النسيان

في أحد الأيام الدراسية، وأنا في الصف، أثناء إحدى الحصص. رأيته شاحباً متعباً. خافضاً رأسه، والعرق ينصب من وجهه بشكل ملفت وغريب. يداه على صدره، اليمنى فوق اليسرى، ويتنفس بجهد وصعوبة.

جلست أرقبه بخوف وقلق، وحينما انتهت حصة الدرس وبدأت الحصة التي بعدها، سقط فجأة على جنبه الأيمن كجثة هامدة. انتصبتُ واقفاً أنظر إليه برهب، وارتعب الطلاب الجالسون بقربه مبتعدين عنه. فقد عم الخوف الجميع. والكل اعتقد أنه مات.

توجه نحوه معلمنا الفارسي (بهرام) ببرود شديد. سيره البطيء وأسلوبه الجاف أزعجني. وارتسام الاشمئزاز على وجهه وهو يحاول تحريكه بأطراف أصابعه، التي كانت تتحرك بقرف وكأنه يقلب قذارة أضجرني. لم أتمالك ثوران نفسي، فخرجت مسرعاً، غير مستأذن نحو مكتب المدير، الذي وجدته يتبادل الحديث والضحكات مع أستاذ آخر.

قلت له بفزع:

- (باقر) مات.

- من (باقر)؟!

- أحد طلاب صفي.

اتسعت عينا المدير استغراباً! فتوجه نحو صفي ساحباً الأستاذ معه، وبقيت خلفهم أتبعهم برعب وقلق وأحدثهم عن سقوط (باقر) المفاجئ والمخيف.

عندما وصلنا توجه المدير نحو (باقر) يعاينه. وجميع طلاب صفي ينظرون لما يحدث وهم واقفون بعيداً بأجسام مرتعشة وكأنهم يشاهدون طيف شبح.

تحقق المدير من نبضه، وقال بلغة الواثق إنه فاقد للوعي فقط. حمله وقتها وهو يفيد أنه سيأخذه إلى المشفى. أخذه دون أي اهتمام، فقد كان يسير به بخطوات بطيئة، ويقف يتحدث مع كل من يسأله عن الطالب وسبب حمله.

في اليوم التالي، ويا للأسف! عرفنا أن (باقر) فارق الحياة قبل أن يصل إلى المشفى. قالوا أيامها إن غاز الإيثان هو الذي قتله. تواجده في شبكة أنابيب الشرب أدى لإصابة مئات السكان بأمراض تنفسية عدة، فكان (باقر) أحد الضحايا الذين لفهم كفن الموت وصاروا من سكان المقابر.

أخبرنا عبدالله (أخو باقر) الذي يكبرنا بعامين، عندما اجتمعنا حوله نسمع حديثه عمّا حدث لـ (باقر)، إنه وجميع أهله يعانون من صعوبة في التنفس بدرجات متفاوتة. ولنتيجة ما حدث لأخيه، بدؤوا بمراجعة الأطباء، خوفاً من أن يلقوا مصيره المؤسف المحزون.

بموت (باقر) اختفى طالب عربي من صفنا. هاجر إلى المقابر دون سابق إنذار، هكذا دون أن ينبه أحداً. كنت أشعر بأحاسيس غريبة كلما دخلت الصف، وكأن العفاريت صارت تسكنه. جسمي يرتعد والخوف يتلاعب بي كما تتلاعب الرياح بأوراق الشجر.

كانت خطوات سيري تتباطأ كلما هممت بالدخول. وجلوسي في مكاني يصحبه خوفٌ فاتلفت حولي بقلق لم أتمكن من إخفائه. وكثيراً ما أزعجني استمرار الطلاب بالحديث عنه. كيف كان، كيف مات، ومتى وأين دفن؟

في اليوم الخامس تناسى الطلاب موت (باقر)، وانشغلوا بالحديث عن المباراة التي ستقام بين فريقنا الأحوازي وفريق آخر فارسي.

مباراة من هذا النوع لا تمر إلا ويحدث فيها -خاصة بعد انتهائها- صدامات بين شبابنا الأحوازي وقوات الأمن.

أبي يقول إن الصدامات تزداد شراسة في كل مرة تقام فيها مباراة. أضاف قائلاً: إن شبابنا الأحوازي يزداد شجاعة، وقوات السلطات تزداد قبحاً وعنفاً. ففي كل مباراة يرتدي الكثيرون من

الشباب زيه العربي. يرددون هتافات حماسية، ويعملون على رفع شعارات تفتخر بالعزة العربية، وهذا ما يجعل القمع بعنف هو الوسيلة المفضلة، التي تستخدمها قوات الأمن كي تتصدى لهكذا وضع.

في الغالب لا تسمح أمي لأخي (محمد) بالذهاب إلى أية مباراة، إلا بعد أن يقسم لها بأنه سينسحب من أي صدامات تحدث وبسرعة. لكنه كان يغافلها كثيراً فيذهب دون أن تعرف.

عندما أتى اليوم الذي ستقام فيه المباراة، اضطربت أمي من بدايته. رفضت ذهاب أخي، وأغلقت عليه باب المنزل. ترجاها فعارضته. ناشدها فاستاءت منه حانقة. استسلم لها. ثم عاد يرجوها ثانية، فاستسلمت له ووافقت على ذهابه بتردد وخوف. فخرج من البيت على عجل، خشية أن تغير رأيها، فمزاجها كان يخوض صراع قوياً لا يمكن لأحد أن يتنبأ بتقلباته ونتائجه.

حينما اقترب موعد المباراة، كستها عواصف القلق أكثر فأكثر، فطفقت تلوم روحها، وتدعو على نفسها.

- ليتني لم أوافق على ذهابه. ليتني حبسته في البيت ومنعت خروجه.

هكذا كانت تحدث نفسها بصوت خافت اسمعه. حاول أبي تهدئتها وتخفيف ذعرها. لكن عباراته وكلماته التي حاول من خلالها إيقاف تذبذبات مشاعرها على وتيرة الهدوء والاطمئنان لم

تكن تنفع أمام موجة تفكيرها السوداوي وقلقها المتزايد، الذي حكم عليها بالوقوف رائحة ذهاباً وإياباً في أرجاء البيت دون توقف.

أبي عكسها تماماً. هدؤه وقتها أشعرني بالاطمئنان. أما هي فتقلق كثيراً. وتفاقم الأحداث فوق ما هي عليه.

انتهت المباراة، فحدثت الصدامات كما هو متوقع، وانتشرت أخبارها بين الناس بشكل خاطف. يصاحبه ذعر وخوف. قنابل مسيلة للدموع، هراوات تنهال على أجساد الشباب، رصاص حي يتطاير في أرجاء المكان، واعتقالات بالجملة لا تفرق بين أحد.

ما وصلنا من الأخبار جعل أبي يضطرب بوضوح، وشعرت أن أمي ستجن.

قال لها بقلق:

- ننتظر ساعة. إن لم يعد. أخرج للبحث عنه.

قعدت أتفرج وأتأمل ملامح الاضطراب التي ارتسمت على أبي. حقاً سيجد القلق طريقه إليه. هو فقط لا يحب أن يُهَوِّل الأحداث كأمي، آنذاك، بكاء أمي أبكاني، واضطراب أبي اقلقني. راقبتُ عقارب الساعة المعلقة عرض الحائط المقابل لي. تسير بنغمة بطيئة، وكأنها لا تريد أن تمر. وكأن الزمن تكاسل عندها معانداً.

بقيت أرقبها وكسلها حتى أحسست أن رأسي سينفجر، ولما انتهت خرج أبي يبحث عن أخي بقلق وعجل. وأفكار أمي السوداوية تتلاعب بها وكأنها وسط رياح عاصفة في بحر غاضب.

وقتها لم تتردد من ذهاب أبي ولم تعارضه. هي تخاف على أخي أكثر من خوفها عليه. غزتني في تلك اللحظات المشؤومة أفكارها المظلمة. سألت نفسي: ماذا لو لم يعد أخي وأبي أيضاً؟ أضفت لنفسي مستاءً: كنا في واحد، والآن صرنا في اثنين.

بعد فترة قصيرة من خروج أبي، قرع أحدهم الباب. هَبتْ أمي نحوه مسرعة. لكني سبقتها بفتحه. كان الطارق أخي، وقتها زاد بكاء أمي أثناء رؤيته. كلمتُ روحي متعجباً: غريبة، ها هو قد عاد، فلماذا تبكي الآن؟

جلس أخي على المرتبة بهدوء، وجلستْ أمي بقربه تتحسسه وتعاينه حتى تأكدت ألا مكروه أصابه باستثناء انكسار إبهام يده اليسرى. حينما سألته عن السبب، برر انكساره باصطدامه بطرف حائط حينما حاول الاختباء خلفه متجنباً ما كان يحدث.

لم يعد أبي، وأمي لم تهتم بذلك، فقد انشغلت بأخي وكأن أبي لم يخرج منذ لحظات للبحث عنه. عندئذ بقيت أرقب الباب محاولاً إخفاء قلقي وخوفي على أبي، ولما سأل أخي عنه، أجبته مسرعاً:

- خرج للبحث عنك.

وقف منتصباً بقلق، وهمَّ بالخروج كي يبحث عنه، لكن أمي أوقفته.

قالت له بحزم:

- اجلس مكانك. سيعود قريباً فلا تقلق.

أعرف أمي، لن تسمح له بالخروج حتى وإن لم يعد أبي.

سألها بقلق:

- وإن لم يعد.

أجابته بثقة:

- بل سيعود.

جلس في مكانه مجبراً. لم يعجبه الوضع، فشرع يقلب عينيه بحنق، ثم وقف بشدة وكأنه يريد أن يفرض ما أراد على أمي.

قال متشجعاً:

- يجب عليَّ أن أذهب للبحث عنه.

نظَرتْ إليه بعينين حادتين ملؤهما الغيظ والغضب. تخيفني أمي عندما تغضب أكثر من أبي. ستضربه، وإن لم تفعل، سترميه بأي شيء يقع في يدها دون أي تردد، فهي لا تمزح في مثل هذه المواقف.

قالت له بانفعال:

- قلت لك اجلس مكانك.

جلس مضطراً، مكرهاً، وتوجهت هي إلى المطبخ. جلبت لنا ما يؤكل، ثم قالت له بهدوء أعصاب:

- لن نلعب هذه اللعبة. هو خرج للبحث عنك، فعدت أنت قبل أن يعود. تخرج أنت للبحث عنه، ويعود هو قبل أن تعود. ثم يخرج هو ثانية للبحث عنك وهكذا. هذا صداع، ابق في مكانك، وقريباً سيعود.

وافقت أمي بما قالت. لكن همها الأول أخي. أبي يأتي في المرتبة الثانية. بعد نصف ساعة تقريباً، عاد أبي فانزاح القلق من صدورنا، وهدأت روحي وروح أخي المضطربة واطمأنت قلوبنا المرتبكة.

❖❖❖❖❖

11

انتفاضة أخي محمد

يملك أخي (محمد) موهبة الرسم وروعة الكتابة بأنواع الخطوط العربية المختلفة. في البيت يملك كراسة يخفيها عن أمي، يتنفس من خلالها. يرسم بداخلها، ويخط عليها ما يجول بخاطره وفكره.

أكثر ما في كراسته لوحات ثورية عربية. عندما أطالعها، يتملكني شعور بالارتياح على الدوام فأتصفحها بسرية، دون أن يعلم بذلك.

مؤخراً تفاجأت بوجود بعض من أعماله الثورية المرسومة في كراسته، منحوتة على جدران بعض المباني، منها سور مدرستي. يومها وقفَ المدير بجانب السور، يتحدث بغضب لبعض المعلمين ورجال أمن حضروا لفحص موقع الجريمة كما صورها لي غضبه واحتشاد الأمن لمعاينة المكان وما يحتويه.

عدت إلى البيت مسرعاً، خائفاً، كاتماً ما رأيت عن أمي وأبي، ولما عاد أخي في المساء حدثته باضطراب عن ما رأيت. توتر ونظر

نحوي يستمع إليَّ بعيون غزتها المفاجأة وامتلأت بالقلق، ثم قال لي بصوت حازم:

- إياك أن تخبر أمي بما رأيت.

هو يخاف من أمي أكثر من أبي.

أجبته مضطرباً:

- أبداً، لن أخبرها بشيء.

استويت جالساً، وتأملته بنظرة طويلة ثم سألته متردداً بصوت خافت:

- أنت من فعل ذلك، صحيح.

نظر إليَّ وأجابني بفتور:

- نعم.

أسرعت أقول له:

- لا تقلق، لن اخبر أحداً.

أبعد عينيه عني وسمرهما على الحائط المقابل له، وغاص شارداً يتفكر، فتركته لنفسه.

أيامها صرت أشاهدُ، بين الحين والآخر، رسوماته منقوشة على المباني في عدة شوارع. تملكني شعور بالعظمة والافتخار وأنا أشاهد صرخاته الثورية مرتسمة ومنحوتة في أماكن مختلفة.

رغم شعوري هذا إلا أن الخوف أصابني مما قد يحدث له. حدثت نفسي متفكراً: هكذا سيرمي بنفسه إلى الهاوية، وستكون هجرته إلى المقابر سريعة. أضفت لنفسي متسائلاً: ماذا إن قبضوا عليه؟

فكرت كثيراً أن أخبر أمي، لكني عدلت عن ذلك. ستُجَنُّ إن هي عرفت، وأخي لن يسامحني أبداً، فيكفيني عندما كشفت عن سر أعلامه، لذلك كتمت ما في نفسي وأخفيت خبر انتفاضته في صدري ولم أبثها لأحد.

❖❖❖❖❖

في تلك الفترة، مرت علينا الأيام والشهور بهدوء وراحة بال تمنيت أن لا تزول، حتى أتى ذلك اليوم المشؤوم. اليوم الذي لم يعد فيه أخي إلى المنزل. انفجر القلق في بيتنا، وتملك الفزع أرواحنا، وتطايرت شرارات الخوف من أعيننا.

مكثنا شهراً كاملاً نبحث عنه. لم يترك أبي مركز شرطة ولا مشفى ولا مركز صحي إلا وسأل عنه، مرة ومرتين وثلاثاً.

طافت أمي منازل أصدقائه، وأصدقاء أصدقائه كالمجنونة. لم يسمع عنه أحد، ولا يعرفون عنه شيئاً. انتظرنا أياماً وليالٍ علّه يعود، لكنه لم يعد.

الحزن جعل أمي طريحة الفراش، وتبكي باستمرار. أحياناً تبكي معه أخي (حبيب). أبي أيضاً بكى وانتحب. المسكين لم يحتمل فكرة أنه فقد ولداً آخر.

صرت أجد راحتي خارج البيت، فالأحزان نسجت لها خيوطاً كئيبة وموحشة في زواياه وجدرانه. وصرت فيه أشعر أن مخالب الحزن تحيطني من عنقي ساعية لخنقي. أكره الحياة إن استمرت بهذا الشكل، وأخاف كثيراً من أن تستمر بهذه الصورة الكئيبة.

بكيت أخي (محمد)، لكني كثيراً كنت أبكي لمواساة أمي وأبي فقط. إني أضجر من البكاء، عكسهم تماماً، فكثيراً ما كنت أشاهدهم ينتحبون دون أن انتحب معهم.

يوماً كان أبي جالساً سارحاً أمام باب منزلنا. يندب حظه المشؤوم بفقدان ولده الثاني. يحوقل و يقول حسبي الله كثيراً بصوت خافت حزين.

جلست بقربه هادئاً، أرقب شروده الحزين بصمت. لم أكن أعرف ماذا أفعل له حتى أواسيه بغير البكاء. نظرت إلى عينيه الممتلئتين بالدموع، أحسست أنه يقاوم حتى لا ينفجر باكياً. ربما يجدها عيباً أن يبكي خارج البيت، فلربما مر أحدهم فيراه والدموع تتساقط على خديه فينهد كبرياؤه.

قطع تفكيري وشرود أبي الحزين مرور أحد الجيران. اقترب منا وسلم علينا بصوت فيه أسف، وخاطب أبي مُصّبراً له:

- اذكر ربك يا أبا (حبيب)، وسلم أمرك له، فالغائب لا بد أن يعود.

- إن شاء الله. الله كريم.

لم يرد عليه أبي بأكثر من هذا، فقد خفض رأسه ناظراً إلى قدميه، مبعداً عينيه عن عيني جارنا، التي كانت ترمقه بأسف واضح. وساعتها ازدادت عينا أبي امتلاءً بالدموع، وتلألأتا بشوق فاضح للبكاء، فغالب نفسه حتى لا يبكي.

شعر جارنا بحساسية اللحظة، فنظر إلينا بحزن، وسلم علينا ثم انصرف على عجل.

أيامها أزعجتني نظرات الناس لنا. زادت من كآبتي وحزني فتجنبت تصادم عينيَّ بأعينهم. وأصبحت أسير مطأطأ رأسي حتى وإن وقفت أتحدث مع أحدهم، فخلف نظراتهم وكلمات تصبيرهم سطور مخفية، أترجمها في خيالي باستياء:

- شاب تجاوز العشرين من عمره لا يختفي هكذا. يبدو أنه فعل شيئاً أزعجهم فأخذوه. هو عندهم الآن في سجونهم يُعذَب، هذا إن لم يذبحوه.

لم أخبر أبي وأمي عن رسومات أخي الثورية التي كان يزين بها -قبل اختفائه- أسوار وجدران مبانٍ مختلفة من (الأحواز) العاصمة. شعرت أن هذا افضل، كي يبقى على الأقل خيطاً رفيعاً من الأمل لعلّه يعود. يدفعهم للاستمرار بالعيش في هذه الحياة البائسة. فقد استمرت أمي بدعائها ورجائها، واستمر أبي يسأل

عنه بين يوم وآخر دون أن يفتر. واستمرت حياتنا، سوداء كئيبة وخانقة. يتخللها بعض خيوط بيضاء من ابتسامات وضحكات لا تستمر طويلاً، نبادل بعضنا بها بفتور وجفاف.

12

الأمل الضائع

في أول سنة دراسية لي في المرحلة المتوسطة، لم يكن لدينا معلم رياضيات. قال المدير لنا: إن معلماً جديداً سيأتي بعد أسبوع، لكنه أتى بعد أسبوعين. كان كردياً، محولاً من مدينة (الفلاحية) إلى مدرستنا.

عندما دخل علينا أول مرة، دخل بوجه مبتسم. حيانا واعتذر لنا عن تأخره. عرَّفنا بنفسه وشرع يتعرف علينا الواحد تلو الآخر.

حمدت الله عليه. أخيراً حصلنا على معلم بشخصية غير فارسية. بشوش وودود، وينظر لنا بعيون متساوية، لا تفرق بين عرق وآخر.

يومها عدت إلى البيت مرتاحًا عكس ما كنت أعود. أخبرت أبي عن معلمنا الجديد. ابتسم لي بذبول دون أن يقول شيئاً، وسبح في عالمه يتفكر بحزن، فشردت معه أقلب خيالي وأتفكر أنا أيضاً.

حياتنا أصبحت قاسية. أخذتنا إلى منعطف أكثر بؤساً وشقاءً. أبي يعاني من ذلك ويكتم في داخله، حتى أمي لا يخبرها عن ما يزعجه. أحياناً يعمل، وأحياناً كثيرة يقضي وقته بحثاً عن عمل.

في المساء يعود محبطاً، حتى وإن وجد يومها عملاً. يجلس بيننا هادئاً، فقليلاً ما يتحدث، وقليلاً ما يأكل.

كنت أرقبه بصمت، وأرقب أمي التي كانت ترقبه أيضاً بالصمت نفسه.

أحياناً من سوء وضعنا المعيشي تذهب أمي إلى السوق، تبيع قطعة من حُليها، وتعود إلينا محملة بما ينقصنا.

❖❖❖❖❖

مرت بنا الأيام في هذه الحياة ببرود كالصقيع. الصمت أكثر ما يشوبها. أبي يزداد انغلاقاً على نفسه، وأمي تتجنب أن تنبش أمامه سوء حالتنا. عندما أجدهما يتأملان صورتي أخي (حبيب) واخي (محمد) المؤطرة، والمعلقة بجانب بعضٍ عرض الحائط، يخنقني صمتهم وحزنهم المخيف.

أحياناً أتأمل الصور مثلهما، وكثيراً ما أتجاهل ذلك، فخيالي يأخذني لتكوين صورة لي ولأمي وأبي أمام صورتيهما، فتوقد شمعة الخوف والكآبة في داخلي كلما وقعت عيناي عليهما.

تمنيت أن أزيلهما. أن أبعد نفسي ووالديَّ عن الحزن الذي يجتاحهما بسببهما. أحياناً أشعر أنهما يستلذان حزنهما، وكأن الحزن والدموع صارا شيئاً أساسياً في عيشنا ولا غنى عنه في حياتنا.

صارت أمي تخاف علي أكثر من ذي قبل. مرة عدت إلى البيت من المدرسة متأخراً، صرخت علي غاضبة:

- أتريد أنت أيضاً أن تجعل قلبي ينكوي عليك. أقسم بالله اني سأموت إن حدث شيءٌ لك.

❖❖❖❖❖

خرجت مرة أتفسح مع (رسول) إلى نهر كارون. وجدنا على الأرض أوراق ولافتات مرمية. كان هناك تجمع، فالأوراق واللافتات تصرخ ضد سياسة (طهران)، وما تفعله بأنهار (الأحواز)، خاصة نهر كارون الذي بدؤوا بتحويل مجراه ليصب في داخل الأراضي الفارسية، بدلاً من مصبه الطبيعي في الأحواز.

شرعنا نقرأ المكتوب على الأوراق واللافتات الواحدة تلو الأخرى، هناك، وجدني شاب طويلٌ وأصلع. رآني فاقترب مني وسألني:

- أنت سجاد. أخو (محمد) الأصغر؟

- نعم.

أخبرني أنه أحد أصدقاء أخي. نزع ورقة صغيرة من إحدى اللافتات، وطفق يكتب عليها بقلم أخرجه من جيب قميصه السماوي. بعد أن انتهى مد لي ما كتب وقال:

- قد تجدون شيئاً يوصلكم إلى (محمد). هذا عنوان شاب يدعى (سلمان). رأيت (محمد) يجلس معه كثيراً قبل اختفائه.

أخذت ورقة العنوان منه. كورتها وقبضتها بقوة في يدي خوفاً من أن تضيع. ابتسمت له، وشكرته على عجل ثم انصرفتُ مسرعاً، عائداً إلى البيت أجري بأمل.

أبي لم يكن متواجداً. أخبرت أمي بما حدث بِنَفَسٍ مُتهدج. أعطيتها الورقة. أخذتها مني بلهفة وقرأتها ثم قالت:

- العنوان في أطراف المدينة.

قلت لها وأنا ما زلت الهث:

- ننتظر أبي حتى يعود.

هزتْ لي رأسها موافقة. لحظات فقط وشرعت بلبس عباءتها على عجل، ثم أمسكت يدي وجرتني خارج البيت. أغلقتْ الباب وتوجهتْ ماشية تقصد العنوان.

خاطبتها منبهاً:

- المكان بعيد، ننتظر أبي حتى يعود.

تجاهلتني واستمرت في مشيها بخطوات سريعة، فتوجهت مسرعاً نحو منزل الجيران. أعلمتهم بخروجنا كي يخبروا أبي إن عاد ولم يجدنا.

وصلنا إلى مكان العنوان قبل الغروب. قرية بسيطة. الفقر ينحت تفاصيل قاتمة على بيوتها المكونة من الصفيح وعلى وجوه سكانها اليائسة. تمر منها رياح مكدسة بالغبار، فزادت حياتهم اختناقاً وضجراً.

وجدنا بعض الأولاد يلعبون أمام أحد المنازل. سألتهم بلطف عن بيت (سلمان)، فقادنا أحدهم إليه. سار أمامنا حافي القدمين، والتراب يتطاير من ملابسه البالية. أشار لنا نحو البيت بأحد أصابع يده اليمنى، فشكرناه وانصرف عائداً.

طرقتْ أمي الباب بهدوء. فتحت لنا صبية صغيرة. بسن الخامسة أو السادسة تقريباً. بيدها كسرة خبز تقضمها بصعوبة لقساوتها. رأتنا فتوجهت عائدةً تجري وتنادي أمها. حضرت الأم قلقة. رحبت بنا وأدخلتنا دون أن تعرف من نحن؟ وماذا نريد؟

جلسنا على فراش من الحصير. وبعد أن قدمتْ لنا أم (سلمان) ما جادت به نفسها الكريمة. أخبرتها أمي ببغيتنا فانهمرت عيناها ساكبة دموع غزيرة. وطفقت أمي بالبكاء معها. هكذا اشتعلت القلوب بالأحزان من جديد. آه كم أكره هذا.

غالبت أم (سلمان) نفسها حتى توقفت عن البكاء، ثم أفادت أنها لا تعرف شيئاً عن أخي، ولا عن ولدها (سلمان) الذي لم يعد إليهم في اليوم نفسه الذي لم يعد فيه أخي إلينا.

عدنا خائبين. ضاع الأمل منا سريعاً كما أتى سريعاً. عينا أمي دامعة طوال طريق عودتنا. في البيت انتحبتْ أكثر. عجبت لها من أين تأتي بهذه الدموع كلها.

كرهت أخي، ماله وللسياسة. أمي تموت ببطء كمداً وحزناً عليه. كرهت نفسي أيضاً. لمتها وعاتبتها كثيراً. ليتني ما تسترت عليه، وما أخفيت ما كان يخفيه. لو فضحته أمام أمي، لأوقفته عند حده، ولكان بيننا الآن. ولما تلاعبت بنا الأحزان كأمواج البحر الهائجة.

أصبحت أكره البيت. الوحدة تتعمق فيه أكثر وأكثر، وكأنه مسكنٌ للعفاريت. يخرج أبي في النهار بحثاً عن أملٍ وعمل. عندما يعود لا يرغب بالحديث مع أحد. حتى السؤال عن حاله يزعجه.

أمي هي الأخرى صامته. إذا تكلمت تخرج منها بحة قهر مع كل كلمة تطلقها. صارت تتأملني أكثر مما تحدثني، فعوضتني عن قلة كلامها بقبلات أكثر وحضنٍ أدافأ.

في إحدى الليالي، لم يعد أبي إلى البيت في الوقت الذي عودنا فيه أن يعود. ثار القلق في بيتنا من جديد. مكثنا ساعة ننتظر عودته بخوف وفزع يتزايد اشتعاله في كل دقيقة تمر.

عندما ضاقت صدورنا من الانتظار، أرسلتني أمي للسؤال عنه في قهوة الشيخ (علي)، فذهبت مسرعاً أركض بخوف، هناك، وجدته جالساً بمفرده. يشرب الشاي بشرود حزين. اقتربت منه وجلست بجانبه بهدوء. نظر إليَّ بعيون ذابلة ومستفسرة. فأسرعت أحدثه بصوت خافت:

-قلقنا عليك. فأتيت أبحث عنك.

غالب تقاسيم وجهه الكئيبة وابتسم لي بتكاسل وجفاف، ثم مد يمناه ووضعها على رأسي. وصار يهدهده بلطف.

- أنهي الشاي ونعود إلى البيت.

قال هذا بلسان ثقيل ورجع إلى شروده الحزين، فتركته حبيس نفسه، وشرعت أتأمل القهوة ومن فيها.

رأيت ثلاثة رجال جالسين حول الطاولة المقابلة لنا. أعرفهم صوراً لا أسماء. اثنان منهم يلعبان على الطاولة. وبجانبهما كوبان من الشاي. ثالثهم يرقبهم بحرص. ويرشف شايه بشكل متواصل رشفات خفيفة وهو ممسك كوبه بيده اليمنى دون أن يضعه على الطاولة ولو للحظة واحدة. آنذاك سمعته يقول مخاطباً رفيقيه اللذين يلعبان:

- أتعلمون يا سادة. أن بعض الأسرى. ربُط كل طرف من أطرافه إلى سيارة. انطلقت به إلى جهة غير جهة السيارة الأخرى. ومزقوه على هذه الطريقة البشعة.

اقشعر بدني لحديثه، واهتز له خيالي. حاولت أن أرفض كلامه مبتعداً عن تخيله. يا ألله، ما هذه البشاعة؟! شعرت أني بدأت أدوخ والدنيا تدور بي من قوة تفكيري الذي لم أتمكن من مقاومته.

أوقف أبي خيالي المظلم الذي غاص بي في وحل بشاعة القتل والتعذيب. نهض من كرسيه، فنهضت معه. أمسكني من يدي، وسرنا عائدين إلى البيت بخطوات بطيئة وكئيبة.

تأملته وعينيه المضطربتين المقهورتين بحزن. انتبه عليَّ وأنا أتأمله فابتسمت له بأمل. آه كم يقهرني انكساره. دعوت الله في داخلي أن يخرجه من بحر الكآبة الذي غرق فيه.

وصلنا إلى البيت فوجدنا أمي تحرق كتاب (الشاهنامة) داخل ذات القدر المعدني، الذي أحرقت فيه أعلام أخي سابقاً. تفصله عن تجمعه ورقة ورقة، وتحرقه مستلذةً بذلك. لم تكن تحرق ورقة ثانية إلا بعد أن يكتمل احتراق الأولى.

تذكرت يوم منعت أخي من إحراقه خوفاً عليه. ها هي اليوم تحرقه بنفسها. خوفها على أخي اختفى باختفائه. الآن فقط ليذهب (الشاهنامة) إلى الجحيم. فقد اختفى من كانت تخاف عليه.

يومها جلست بجانبها وساعدتها في إحراقه، واستمتعت معها في ذلك.

❖❖❖❖❖

تفًا تفًا لك أيها الفلك الدوار..

العرب الحفاة العراة..

أكلوا الضباب..

يدوسون أرض فارس الجميلة..

(نص من الشاهنامة)

13

أولاد الشوارع

بعد مرور سنة على اختفاء أخي. صارت حياتنا المعيشية أكثر بؤساً وسوءاً، فلم يعد هناك شيء لدى أمي كي تبيعه. وصحة أبي تفاقمت. قدماه لم تعد تسيران به كثيراً، ونوبات السعال تزوره باستمرار حتى يتقوس ظهره. يرفض الذهاب للأطباء. قلة المال هي العلة التي منعته من ذلك.

بدأت أمي تعمل، تصنع كعكاً محشياً بالتمر في المساء، وتبيعه نهار اليوم الثاني في السوق. قررت أن أساعدها ببيع ما تصنعه بدلاً عنها. عندما عرضت عليها ذلك صرخت علي غاضبة:

- تعليمك أهم عندي.

سمعت لها بصمت. لم أجادلها. أعرفها جيداً. لن نصل إلى حل إن تهورتُ وجادلتها. فكرت بطريقة أخرى لمساعدتها. في الشوارع كنت أرى أولاداً كثر يشتغلون في مسح السيارات. بعضهم يبيع الصحف، والبعض الآخر يجمعون العلب البلاستيكية من الطرقات

ومن النفايات، وآخرون يتسولون بلسان متمسكن ويد ذليلة، ومنهم من يفتش في المزابل عن شيء يأكله.

فكرت أن أعمل بمسح السيارات بعد دوامي المدرسي دون أن يعرف أحد بذلك. مرة ذهبت أرقب الأولاد الذين يشتغلون بمسح السيارات في أحد الشوارع. وجدتهم يتسابقون على إحدى السيارات الفارهة. تعارك بعض الأولاد بسبب ذلك. فضاق منهم مالك السيارة ورفض خدماتهم باستياء.

❖❖❖❖❖

في اليوم الذي قررت فيه أن أعمل توجهت إلى أحد الشوارع البعيدة. فكرت: هذا أفضل لي. هنا لن يعرفني أحد. لم أكن الوحيد. أولاد غيري كانوا متواجدين ومنهمكين في أعمالهم المختلفة. لم أعرف وقتها كيف أبدأ بالعمل. تسمرت واقفاً بعيداً عنهم. واضعاً سطل ماء بجانبي وممسكاً بيدي إسفنجة وخرقة سوداء، ومعي مسحوق صابون أخفيته في جيب بنطالي المدرسي.

بينما كنت واقفاً أتأملهم لاحظني أحد الأولاد. أكبر مني سناً. الفقر مرسومٌ عليه. حافي القدمين، وملابسه بالية ومتسخة. أصلع هزيل ويمسح جبينه بكم قميصه البني المتشقق.

اقترب مني وتأملني. سلط عليَّ وعلى السطل القابع بجانبي نظرة انبهار، ولمحت في عينيه تعجب مني ومن هيئتي التي لم تكن تدل على أني واحدٌ منهم.

اقترب مني أكثر وسألني بتردد:

- لم لا تعمل؟

خفضت رأسي واجبته بحياء:

- هذه أول مرة لي.

همهم وقال لي:

- أنت جديد على الشغلة إذاً!

- أجل.

- لا عليك. الأمر سهل، وستعتاد على ذلك.

في تلك الأثناء توقفت سيارة بعيدة عنا بقليل، رأها فتوجه نحوها مسرعاً، ثم التفت نحوي وصاح قائلاً:

- تعال. لا تقف هكذا كالأبله.

ركضتُ إليه بتلبك، وشرع يتحدث مع مالك السيارة بتودد حتى وافق مالكها على تنظيفها. ثم نظر إليَّ وقال متسائلاً:

- أين سطلك؟

ارتبكت. تلفَّتُ حولي أبحث عنه، فقد نسيته للحظة طويلة. رأيته فذكرت أين وضعته وذهبت أجلبه على عجل، ثم شرع الولد الأصلع بتنظيف السيارة وتدريسي كيف أتعامل معها. إنه ولدٌ طيب. تمنيت أن يكون كل الأولاد مثله.

أكملت وقتها التنظيف بمفردي، وعندما انتهيت جلسنا بجانب السيارة ننتظر مالكها الذي كان يتسوق من إحدى المحلات التجارية. لحظة عودته أعطى أجرة التنظيف للولد الأصلع، فشكره الولد وابتسم له. ثم ابتعدنا عن السيارة، وقام الولد بإعطائي نصف ما قبض. شكرته ورقص قلبي فرحاً بذلك.

يومها تمكنت من تنظيف خمس سيارات، والولد الأصلع يتأملني ويراقب عملي دون توقف. انتهيت فعدت للبيت مبكراً حتى لا أشغل بال أمي. قلبها لم يعد يحتمل نوبة قلق ولو لثوانٍ معدودة.

في اليوم التالي، توجهت للشارع نفسه فلم أجد الولد الأصلع الذي ساعدني البارحة، فشرعت أعمل وحدي. المستوطنون الفرس سياراتهم فارهة أكثر من العرب. والأولاد هنا لا يجيدون الفارسية، فقط بضع كلمات لتدبير أمورهم.

بدأت استغل هذا. أبدأ الحديث مع الفرس بابتسامة يشوبها الزيف. يفرحون بي عندما يجدونني أتحدث لغتهم بطلاقة. هكذا صار الكثيرون منهم يضاعفون أجرتي، فغدوت أجني مالاً أكثر من بقية الأولاد رغم ضآلة عدد السيارات التي أقوم بتنظيفها.

❖❖❖❖❖

كان يسعل كثيراً. أوقات يخرج الدم من فمه عندما يسعل. مرة عرضت عليه الماء ليشرب. شرب وعاد يسعل من جديد. كانت حالته تزداد سوءاً بين يوم وآخر. سعاله يزيد، والدم الذي يخرج من فمه يزيد أيضاً. كثيراً كنت أقول أنه سيموت اختناقاً من شدة وكثرة سعاله.

شفقت عليه. إصراره على المجيء كل يوم ليعمل يحزنني. نصحته أن يعود إلى مسكنه، كلمته بنبرة صوت حزينة:

- عد إلى بيتكم. لا يجب عليك أن تعمل.

رد عليَّ قائلاً بصوت فيه بحه:

- بل يجب عليَّ ذلك.

قال هذا وعاد يكح من جديد، فعرضت عليه قائلاً بتودد:

- غداً عندما تأتي سأعطيك نصف ما أجنيه اليوم. عُد إلى مسكنك الآن.

رمقني بعينيه الغائرتين. هز رأسه موافقاً، ثم غادر ماشياً على مهل وهو يكح.

في اليوم التالي لم أجده. سألت عنه بعض الأولاد. أجابوني أنه مات. انفجعت. إنه حقاً مسكين. قالوا لي عنه: إنه يتيم ووحيد أمه المريضة، التي قد تلحقه قريباً. انقبض قلبي أسى. ما أبشع البؤس الذي يكسو بعض البشر!

يومها توجهت برفقة أحد الأولاد لزيارة أمه. مسكينة هيَ. وجدتها طريحة الفراش تحتضر، وتبكي ولدها (سالم) الذي قام بعض من فاعلي الخير بتجهيزه لقبره ودفنه.

لم أمكث عندها طويلاً. بكاؤها يشبه بكاء أمي، فتذكرت جميع أحزاني. وكأنها عادت لتكسوني من جديد. وضعتُ كل المال الذي جنيته البارحة -لم يكن معي غيره- بجانب رأسها وانصرفتُ وقلبي ينبض بألم.

عرفت في اليوم التالي أنها لحقت بولدها. اضطربتْ نفسي في بداية الأمر ثم هدأت بصورة غريبة. فكرت: لربما الهجرة إلى المقابر أفضل لها ولولدها من العيش في هذه الحياة البشعة.

❖❖❖❖❖

أبي يكح كثيراً لكن دون دم يخرج من فمه. تحسنت حالته عندما استخدم الدواء بعد أن أجبرته أمي على الذهاب للطبيب. صار يملك بسطة لبيع الخضار في السوق نفسه الذي تبيع فيه أمي الكعك المنزلي. حاول إقناعها بترك عملها. لكنها رفضت ذلك.

استسلم لإرادتها. فما كان يجنيه لم يكن كافياً. وأحياناً كثيرة تذبل وتضمر خضاره فلا تباع، عندئذ. يطعمها الماشية أو يرمي بها في المزابل.

في تلك الأيام صرتُ أتغيب عن المدرسة بصورة متكررة

حتى تركتها نهائياً، دون أن يعرف أحد بذلك. أحسست أن نفسي استحسنت العمل الذي أقوم به. خاصة أن مستقبل التعليم محرم عليَّ.

قبل أن أتركها قطعت علاقتي مع كل من أعرفه. أولهم صديقي (رسول). هكذا أفضل. المدرسة ومن فيها، أصبحت عندي من الماضي.

المال الذي كنت أجنيه، أضعه في حقيبة ملابس أمي المعدنية، في المكان ذاته الذي كانت تحتفظ فيه بأشيائها الثمينة، دون أن تعرف أني من أقوم بذلك. عندما تجده تعتقد أن أبي هو من يضعه هناك، لتعويضها عما فقدته.

❖❖❖❖❖

14

الملاعين والأماكن الملعونة

في الشارع تعرفت على (هادي) ولدٌ في مثل سني تقريباً. يتيم. كانت ترعاه عمته واليوم يرعى نفسه بنفسه ونادراً ما يزورها كما قال لي. ملابسه غير متسخة. ولا يبدو عليه آثار الفقر البائس. لا أراه يعمل، فقط يتجول في الشارع، مراقباً الناس والأولاد الذين يعملون. في اليوم الذي لا يأتي فيه، يكون في مكان آخر. يرقبُ الأولاد هناك كما عرفت لاحقاً.

غريب هذا الولد. يتحدث بكلمات قليلة ومحدودة. وعيناه فقط من تتحرك بحرص فاحصة المكان والأولاد الذين فيه بين فترة وأخرى.

عندما شرع يتعرف عليَّ بعمق سألته:

- أين تسكن؟

أجابني:

- ليس لي مكان محدد، فكل يوم أمكث عند أحد الأصدقاء.

رغبت في سؤاله عن طريقته في تدبير أمور معيشته لكني تجنبت ذلك. ربما ستجعله أسئلتي الكثيرة ينفر وقد يحتاط مني.

لحظتها وقفت دورية شرطة بعيدة عنا. تحرك إليها متلفتاً حوله بقلق. وقف بجانبها. فُتح بابها، وصعد سريعاً لداخلها. اُغلق الباب، وتحركت السيارة مبتعدةً عن المكان. راقبتها حتى اختفت. تعجبت من ذلك. هل اعتقلوه؟ لكن ما هكذا يكون الاعتقال. فطردت الفكرة من رأسي.

وجدته في اليوم التالي حزيناً. لم أتجرأ على سؤاله - رغم الفضول الذي انتابني- عن سبب حزنه ولا عما حدث معه البارحة.

مع مرور الأيام كنت أرى نفس الدورية، أو دورية أخرى، تقف في المكان ذاته أو في مكان أبعد، يتجه نحوها فتأخذه وتذهب. أحياناً تأتي من أجله سيارة عادية.

شغلني الفضول كثيراً. لم أتمكن من مقاومته هذه المرة، فسألته بجرأة:

- من هؤلاء؟

نظر إليّ مستغرباً فأوضحت له:

- الذين يأتون فتذهب معهم.

- أصدقائي.

اندهشت من جوابه وسألته رافعاً صوتي بتعجب:

- ماذا؟!

نظر إليَّ بفتور دون أن يهمس بحرف واحد. سألت نفسي:

- أهؤلاء هم أصدقاؤه الذين ينام عندهم كما أخبرني من قبل؟ أضفت لنفسي قائلاً: لعنة الله على هكذا صداقة.

يومها رأيت الولد الأصلع الذي ساعدني أول مرة جالساً وحيداً في ركن. انشرحت لرؤيته. اقتربت منه وتأملته. وجهه شاحب وصار أكثر ذبولاً من أول مرة التقيته فيها. يبدو أنه مريض. تصافحنا. يده باردة وفاترة وتتحرك بتكاسل شديد.

سألته:

- كيف حالك؟

أجابني بلسان ثقيل:

- بخير، وأنت.

- الحمد لله. أين اختفيت؟ أكنت مريضاً؟

أجابني بصوت حزين متنهد:

- في السجن.

رددت ما قاله بتعجب:

- في السجن!

- نعم.

- ماذا حدث؟

- قصة طويلة...

توقف عن الكلام، وصمتُّ مثله. شروده حزين ومخيف. شعرت أنه يموت. يبدو أن ما حدث له في السجن فوق ما يطاق.

صرت أراه هو أيضاً، يتوجه إلى إحدى دوريات الشرطة التي تقف بعيداً. الأشخاص الذين يأتون من أجله. مختلفين عن الذين يأتون من أجل (هادي). هذا فقط تأتيه دوريات شرطة، ولم أره قط يركب في إحداها وتذهب به بعيداً. فقط يسلمهم ما في جيبه من مبالغ مالية ويأخذ منهم قرطاساً أسود صغيراً مليئاً بأشياء (عرفت فيما بعد أنها مخدرات).

كل هذا كان يتم بحركة خفيفة وسريعة. أحياناً يركب في الدورية. لكنه لا يذهب معهم إلى أي مكان. فقط يمكث بداخلها بضع دقائق ثم يخرج منها مخفياً القرطاس الأسود الصغير تحت قميصه.

عندما يأتون إليه يتجنب الحديث معي والنظر إليّ. يتصرف وكأنه لا يعرفني. عجبت منه واندهشت.

وفي كل يوم كنت أراه يتجه إلى خلف أحد المباني القريبة، بعيداً عن الناس، يغيب ساعة أو نصف ساعة، ثم يعود مرحاً ونشيطاً. في بداية الأمر، افترضت أنه يذهب لقضاء حاجته، ومع ذلك كنت أتعجب من حالة المرح التي يعود بها. أعلمني بعد أن سألته أنه يختلي بنفسه كي يدخن.

مرة طلب مني أن أذهب معه. وافقت من دون تردد. هناك شرع يدخن واقفاً ويتحرك بتوتر، ويهرش جسمه وكأن الحشرات تسكنه. بعد أن انتهى من سيجارته، جلس مسنداً ظهره إلى جدار المبنى، وكأنه يحمل جبالاً من الهموم فوق رأسه وظهره.

أخرج من جيب بنطاله القمحي الرث، قرطاساً أبيض صغير، بداخله بودرة بيضاء تشبه الطحين. نثرها في وسط ورقة التقفها من الأرض، ثم أغلق إحدى جهات أنفه بإصبعه، وطفق يشم البودرة البيضاء بجهة أنفه الأخرى. شمها كلها. لم يُبقِ منها شيء، فقد ابتلعها بأنفه بشراهة جائع. أخرج بعدها تنهيدة رضى ممزوجة بابتسامة خفيفة.

سألته مستغرباً:

- ما هذا؟

أجابني بعفوية:

- مخدرات.

أحسست أن شعر رأسي وقف متكهرباً. رددت ما قاله بتعجب:

- مخدرات!

- نعم. لمَ أنت مندهش؟ نصف من أعرفهم يتعاطون المخدرات.

- منذ متى وأنت تتعاطى؟

- منذ دخلت السجن. هناك أجبروني على ذلك.

نظرت إليه بأسى وحدثت نفسي: مسكين، بؤساً آخر أضيف له فوق بؤسه. عالم ممسوخ. الذئاب البشرية هم وحدهم فقط من يتمكنون من العيش في هذا العالم برخاء. الطيبون مداسون. يموتون وهم يعانون. أبداً لا مكان لهم في هذا العالم المضطرب.

قال لي ورأسه مرفوع إلى السماء ينظر إليها بعيون حائرة:

- السجن عالمٌ آخر. أنت لا تملك نفسك، هم من يملكونك. إن عاندتهم سيفعلون بك ما يريدون غصباً. هناك أجبروني على التعاطي. لم يكن بين يديَّ طريق آخر.

عندما أدمنت ساوموني. خيروني بين البقاء خلف قضبان السجن الذي سأنتهي فيه سريعاً كما هددوني، أو الخروج. اخترت الخروج فاشترطوا عليَّ أن أعمل من أجلهم.

خطير هو الكلام الذي قاله لي. شعرت أني بدأت أغرق في وحل بؤسه. تمنيت أنه لم يخبرني بشي. قد يحدث لي شيء إن عرفوا أنه تحدث معي عنهم.

أسرعت أقول له بحرص:

- لا تقلق. لن أُخبر أحداً عما تكلمت به معي.

أجابني ببرود:

- لا يهمني ذلك.

صمت للحظة. لحظة طويلة. يُقلبُ عينيه بين الأرض والسماء. ثم قال لي:

- أنا لا أعرف الجنة. ولم أشعر بها وبما تحتويه رغم الكثير الذي سمعته عنها وعن عالمها الزاخر بما لم يخطر على عقل إنسان. عندما أتعاطى أشعر أني في داخلها. ألعب وآكل من نعيمها وأسبح في أنهارها العذبة. أحياناً أشعر أني في مكان ألطف منها.

وعندما لا أجد ما أتعاطاه. أحس أني في جهنم. في الدرك الأسفل منها. مرمياً مع الشياطين والمغضوب عليهم من البشر. وقتها فقط أشعر أن الله لا يحبني. وأستغرب من ذلك متسائلاً:

- ماذا فعلت حتى أُعذَّب هكذا؟

ابتسمتُ له بحزن عميق. وعجزت عن قول شيء ولو كلمة واحدة أواسيه بها. رفعت رأسي إلى السماء وتأملت السحب السائرة وأشكالها المختلفة. أثناء ذلك نظرَ إليَّ بمرح. وقف نشيطاً. وشرع يجري في مكانه قائلاً بحماس:

- هيا لنعد إلى العمل.

يبدو أنه دخل الجنة الآن أو مكاناً أفضل منها كما أفاد.

❖❖❖❖❖

بدأت أشعر أن (هادي) يتقرب مني بشكل غريب. يتحدث معي كثيراً عكس ما تعودت منه. أحياناً يطلب مني أن أترك العمل وأذهب معه كي أتمشى. كنت أجد العمل أهم عندي من الذهاب واللهو. أرفض منه معتذراً، فيتقبل اعتذاري مبتسماً.

أحسست أن الولد الأصلع يضيق كلما رآني أتحدث مع (هادي). يرمقني بنظرات غاضبة وحانقة. توقعت أنه يغار. تكرر حديثي مع (هادي) فتكررت نظراته المحتدمة، التي صوبها نحوي بحنق واضح.

لم يصبر على احتفاظه بمشاعره فطلب أن يحدثني. توجه بي إلى المكان الذي يدخل منه جنته. وطفق يتكلم معي بغضب:

- ابتعد عن هذا الولد، تجنبه، ولا تتحدث معه مرة أخرى.

تفاجأت من حديثه معي. قلت له:

- لماذا؟ إنه ولدٌ طيب. (أضفت لنفسي: على الأقل معي)

أجابني ساخطاً:

- هكذا يبدو لك، وللأولاد السذج أمثالك.

شعرت أن ما قاله لي صحيح، ففي داخلي أجد إحساساً غريباً. يمتزج بالخوف أحياناً. ينتابني كلما تحدثت مع (هادي) أو راقبت تصرفاته الغريبة.

قلت له بحزم:

- لن أسمع منك إلا اذا أفهمتني وأخرجت لي ما تخفي في رأسك.

سكت قليلاً ثم شرع يتحدث بصوت امتزج بالحذر:

- هو ولدٌ سيء. جندوه كي يرقب الأولاد الذين يعملون تحت إمرتهم. يعمل أيضاً على تجنيد أولاد آخرين. فهو يخبرهم عن كل ولدٍ جديد يقابله. إنه السنارة التي يقومون عن طريقها بالاصطياد.

أخافني حديثه. فعلاً إني ولدٌ أبله. سألته بصوت خافت:

- من جندوه؟

- من يملكونه.

أكمل قائلاً:

- أعرفه جيداً، هو الآن يحاول اصطيادك. إن فلح بذلك ليس فقط طريق المخدرات الذي ستضيع فيه، بل هناك طرق أخرى ستهيم بها على وجهك ضائعاً، طريق الموت أحلاها.

ختم حديثه قائلاً:

- حذرتك، وأنت حر بنفسك.

انصرف وتركني هائماً، حائراً أفكر بحديثه الذي أقلقني. فعلاً هناك شيء غريبٌ في (هادي). ليس في هادي فقط، إنما أيضاً في هذا المكان العجيب والمخيف. فقد بدأت الاحظ أشياءً غريبة، لم أكن أركز عليها في بداية أيام عملي.

معظم الأولاد هنا يتجنبون الحديث معي، يراقبونني فقط، ويعملون بمفردهم وكأن هناك من يمنعهم من الاحتكاك بغير من يعرفون. مراقبتي الدائمة لهم جعلتني أصل إلى أنهم يتكونون من مجموعات.

أيامها رصدت ثلاث جماعات. كل جماعة تتكون من خمسة إلى ستة أفراد، مشكلين بذلك عصابة مصغرة. قال الولد الأصلع: إن هذه التركيبة تتواجد في معظم الأماكن التي يتركز فيها أولاد الشوارع. أفاد أيضاً أن كل مجموعة تتبع عصابة مخدرات معينة، أو عصابة لها عمل آخر غير المخدرات، كتجارة البشر وتجارة الأعضاء البشرية. نصحني يومها بحزم أن أتجنبهم وأتجنب الحديث معهم.

في أحد الأيام، ومن المجموعة الثانية، سقط على الأرض أحد الأولاد. ارتعبت. تذكرت سقوط (باقر)، طالب صفي الذي مات. جف حلقي وخفق قلبي بقوة، وشعرت أن رأسي يدور كجناح مروحة.

تأملت الولد الذي سقط بجسد مرتعش. اثنان من جماعته أسرعا بجره بعيداً عن الشارع، وطفقوا يضعون عليه كراتيناً وأوراقاً حتى أخفوه ولم يبقَ منه شيءٌ ظاهر. ساعدهم في ذلك جميع أفراد مجموعتهم.

بقية الأولاد من المجموعات الأخرى، تغاضوا عما حدث، وباشروا أعمالهم وكأن شيئاً لم يكن. أنا الوحيد الذي تسمرت بخوف، أرقب ما يحدث بقلق.

مرت فترة قصيرة. حضرت مركبة نقل النفايات. وقفت بجانب الولد المدفون للحظة طويلة، ثم خرج منها عامل نظافة ضخم الجسد، في يده كيس نفاية أسودٌ كبير.

تلفت يرقب المكان يمنة ويسرى ثم شرع يلف الولد لداخل الكيس مع الكراتين والأوراق حتى أصبح المسكين كومة قمامة في كيسٍ أسود. وعلى عجل ربطه ورماه لداخل مركبة النفايات مع بقية الأوساخ.

في تلك اللحظات الموحشة، لاحظتُ سيارة سوداء، ترقب ما يحدث من بعيد. ارتعبتُ وطفقت أعمل محاولاً أن أبين للجميع أني مثلهم، وأن شيئاً لم يكن.

غادرتْ مركبة النفايات، فتبعتها السيارة السوداء، وبقيت ارقبهم محاولا إخفاء تلصصي حتى اختفوا.

جلست بعدها مع الولد الأصلع على الرصيف، نرقب الناس والسيارات والأولاد من حولنا. سألته بهدوء غريب حل محل القلق الذي انتابني:

- هل رأيت ما حدث؟

- أجل، لا تشغل بالك به. يبدو أنه مريض، أو تعاطى جرعة مخدرات بكمية كبيرة.

- هل مات؟

- ربما.

- مسكين.

- كلنا مساكين.

أخرج سيجارة من جيبه. أشعلها وطفق يدخنها بشراهة. اشتهيت أن أدخنها معه، لربما أنسى ما حدث. أخذ نفساً عميقاً وقال لي متحدثاً بهدوء مخيف:

- أشعر أن روحي لم تعد تحتمل العيش في هذه الدنيا. شهيتي للموت زادت وتضخمت. أفكر أن أقتل نفسي بتعاطي جرعة مخدرات كبيرة كي أشعر أني في الجنة، وأهاجر إلى عالم الأموات وأنا بهذا الشعور الرائع.

رأيت شوقاً للموت يتلألأ داخل عينيه الشبه غائرتين. عندها استهويت أن أعرف عنه المزيد فشرعت أنبش ماضيه.

- أين هم أهلك؟ أليس لك عائلة؟

- كان لدي عائلة. أما اليوم فلا. في كنفها لم أعرف طعماً للبؤس الذي أعيشه الآن. كانت عائلتي هي عالمي السعيد. وكنت أذهب للمدرسة. أذكر أني لم أكن أحبها. والدي من كان يجبرني على الذهاب إليها.

عندما أصابت لعنة المخدرات أبي، تغير كل شيء، وانقلبت حياتنا إلى جحيم. طُرد من عمله. ونحتت القساوة آثاراً لها في تصرفاته ولسانه. فما أفظع الشتائم التي كان يقذفنا بها أو يتقيؤها على كل من يحاول تهدئة جنونه من أبناء حيّنا. وكان لا يمر يوم إلا وينهال علينا ضرباً بقسوة تشتعل في عينيه ويديه؛ لذلك إذا عاد للبيت متشنجاً، ترفض أمي إدخاله، فيتشاجران حتى يسمع الحي كله صراخهما وشتائمه القذرة.

في تلك الفترة الموحشة، سمعت من أمي أنه يتدين من معارفه بشراهة لا مسؤولة ليُشبع بالمخدرات رغبة نفسه. بعد مدة من ذلك رفضوا التعاون معه لعدم وفائه بإعادة حقوقهم. اضطر بعدها إلى الترجي والتسول مختفياً في الأماكن البعيدة، التي توقع أنه لن يراه فيها أحد يعرفه، لكنهم رأوه وعرفوه فانتشرت أخباره بين معارفنا وأبناء حيِّنا كما ينتشر الجراد على الحقول.

أحياناً كان يغيب لأيام ثم يعود للبيت بحالة رثة. يتمسكن ويتوسل لأمي من أجل أن يحصل منها على بعض المال. ترفض

الاستجابة له وتصرخ في وجهه بغضب قائلة: إنها لا تريد أن تكون ممن يشجعه في الاستمرار على ما هو عليه.

عندما تشفق عليه، تستسلم فتعطيه بعض المال. أحياناً يأخذه ويذهب، وكثيراً ما يرميه بسخط على وجهها بحجة أنه لا يكفي، ويطلب منها المزيد بتعجرف ومن دون توسل أو تمسكن. عندئذ، تختفي شفقتها وتزداد عناداً رافضة أن تعطيه شيئاً.

بعد مرور تلك الأيام البائسة اختفى شهراً من حياتنا. شعرنا أن الحظ ابتسم لنا بغيابه رغم اشتياقنا له وخوفنا عليه. لكنه عاد إلينا بعدها. عاد مختلفاً. بهيئة حسنة ويد حنونة. تعجبنا من ذلك، وفرحنا به وبالتغير العجيب الذي رجع به إلينا. قال: إن الله تاب عليه من درب المخدرات الممسوخ.

كان كاذباً ماكراً، ولا أحد يعلم أين كان مختفياً حتى تعلم هذا الخبث الذي عاد به؟! فقد خدع أمي وجعلها هي أيضاً تدمن على المخدرات في بضعة أيام من دون علمها. هكذا أصبح بيتنا ملعوناً. كلا والديَّ صارا مدمنين.

استنزفت أمي كل ما تملك على المخدرات. ثم شرعت في بيع حُليها. تعطيه مالاً فيذهب يشتري له ولها. عندما نفد منهما كل شيء، طفقوا يقومون ببيع أثاث البيت، حتى لم يبقوا على شيء. فوجدوا نفسيهما بعدها بلا شيء.

❖❖❖❖❖

ملعونة هي المخدرات وتلعن كل من يقع في فخها. حيث ضاع الدين وتلاشى الحياء واختفت عزة النفس وغيرتها من أبي ودمه. فقد شرع ببيع نفسه وبيع أمي معه. لم تكن أمي تعارض. وصل الأمر بها إلى أن تتعاطى أهم عندها من أي شيء آخر.

هكذا انقلب منزلنا لبيت دعارة ملفوف بأفعال شيطانية. أكثر من رجل يحضرون في اليوم لمنزلنا، ينامون مع أمي أو مع أبي. عندما يأتون، أسرع بأخذ أخي الصغير (مختار) ذي خمسة الأعوام ونخرج من البيت خائفين، مرعوبين، تاركين الشياطين خلفنا لوحدهم يحتفلون بقذارة. في الليل أُغلق باب غرفتنا عليَّ وعلى أخي، ونقوم بسد آذاننا بقطنٍ وبأصابعنا حتى لا نسمع أصواتهم وتأوهاتهم النجسة.

بعد عدة أسابيع انتقلنا لمنعطف أكثر قبحاً وقذارة، فالشياطين -الرجال الذين يحضرون لمنزلنا- لم يكتفوا بأمي وأبي. أرادونا نحن أيضاً، فكثيراً منهم عندما يحضرون، يرمقونني وأخي بعيون شيطانية. تهتز قدماي خوفاً كلما شاهدتهم وهم يحدقون فينا بمكر وخبث.

بسبب تلك النظرات اللعينة اشتعل الخوف علينا في نفس أبي وأمي. صارا يقومان بإخراجنا من المنزل قبل حضورهم. في الليل يخفوننا داخل المستودع، خلف الأثاث المكسر والأشياء البالية، فنتقرفص خائفين حتى يغلبنا النوم أو يرحل الملاعين.

عندما يسأل الشياطين عنا ملاحظين اختفاءنا، أسمع والديَّ يتحججون، يفيدون لهم أننا سافرنا إلى (خور موسى) لنقضي بعض الوقت في منزل عمي.

مع مرور الأيام، تغير كل شيء. لم يعد الوالدان الحنونان يباليان بشيء من هذا العالم ولا حتى بنا. يبدو أن الشياطين قد ملوا من النوم معهما. لنصبح نحن الثمن الوحيد الذي يساومونهم به. فعندها سلما أخي لعصابة تعمل في تجارة الأعضاء البشرية، وتمكنت أنا من الهرب منهما. أتمنى الآن أن يكونا قد ماتا، وصارا جزءاً معدوماً من تراب هذه الأرض.

دمعت عيناه، ثم انتصب واقفاً وذهب إلى المكان الذي يتعاطى فيه. ربما يريد أن يدخل جنته حتى ينسى الذكريات التي أشعلها لي. تمنيت لو أدخلها معه.

فكرت وحدثت نفسي: لكل منا بؤسه الذي نعيشه بمرارة وقساوة. نتوقع أنه لا يوجد بؤس يفوق بؤسنا. عندما نتعرف على دهاليز هذا العالم المظلم، نجد أن هناك بؤساً أقسى وأمر.

لم أعد أعرف لمَ نتمسك بالعيش في هذا العالم بشدة؟ فقد بدأت أشعر أن السُكنة تحت الأرض أفضل من فوقها.

صارت تصرفات (هادي) تخيفني أكثر من السابق. أصبح يعرض عليَّ الذهاب لنتمشى بشكل متكرر. أعتذر منه بلطف لكنه

يصر عليّ. عندما أتحجج بأهمية العمل يهون علي ذلك، ويغريني. يقول إنه سيدفع لي مالاً يعوضني عن الدقائق التي أمشيها معه.

أوقات يحاول إغرائي بشكل أكبر. عن طريق العرض بإعطائي أجرة يوم كامل. سألت نفسي متعجباً: من أين له المال يا ترى؟

أسلوبه المخيف والغريب جعلني أرفض المشي معه بشدة. وكلما اشتد رفضي يتكرر إلحاحه. فأزداد عناداً مع ازدياد إصراره. فكرت: سانتقل إلى مكان آخر أعمل فيه إن ظل يتعامل معي بهكذا أسلوب مريب.

في تلك الأيام ذي الأجواء المريبة وقفت دورية شرطة قريبة مني. لمحت رجل أمن ينظر نحوي مبتسماً بعد أن انزل زجاج نافذته من المقعد الأمامي المقابل لمقعد السائق. شعرت أنه يراقبني فخفق قلبي وضاق نفسي. فابتعدت عنها بخوف وعجل. ملعون هذا الشارع الذي أعمل فيه. حملت عدتي وغادرت المكان عائداً إلى البيت. وخططت مقرراً أن اذهب لشارع آخر.

في الموضع الجديد الذي انتقلت إليه، شعرت ببعض الأمان والغربة. المكان هادئ، ولا يتواجد فيه أولاد كثر. والعمل فيه فاتر. يومها لم يمر عليَّ وقت طويل وأنا انتظر وقوف سيارة لأعرض على مالكها خدماتي. حتى انفجعت بدورية الشرطة ذاتها تقف بعيداً عني. وتراقبني من بعيد. سألت نفسي بوجل: ماذا يريد هؤلاء الملاعين مني؟!

حملت عدتي وغادرت المكان أتلفت بخوف وقلق. حدثت نفسي: أصبح هذا الشارع ملعوناً. (أضفت لنفسي متفكراً: من الأفضل أن أغادره سريعاً حتى لا تصيبني اللعنة التي أصابته)

في اليوم التالي اخترت شارعاً أبعد عن الأول والثاني. شعرت أن هذا أفضل. توقعت أنهم لن يجدونني هنا. ورغم ما توقعته، نوبات الخوف كانت تزورني بين حين وآخر. فأرقب المكان بنظرات فاحصة بحذر، وأتلفت خلفي بقلق حتى وإن كنت واقفاً أمام أحد الجدران. ذبابة قد تمر من أمام أذني، وتصدر صوتاً فأتخيله شخصاً قادماً نحوي.

مرت ساعات يومي بسلام. لم أرَ الدورية الملعونة، فقررت أن يكون هذا المكان هو مقر عملي الجديد وعدت للبيت مطمئناً مع تسلل قليل من الخوف والقلق لداخلي.

في اليوم التالي، وبعد أن مرت ساعة بهدوء وراحة بال، حضرت الدورية تسير ببطء، ووقفت قريبة مني. الرجل نفسه يتأملني بعيني خنزير. نزل من الدورية، واقترب مني يمشي بتهادٍ. تجاهلته وأنا انظر إليه بعينين حذرتين. ابتسم لي، لم أبال به سألني:

- ما اسمك؟

أجبته بحذر:

- سجاد.

أطال عارضاً ابتسامته لي وقال:

- أعرف ذلك.

لعنته في خيالي، لمَ يسأل إن كان يعرف اسمي؟! سألته بتهجم وتعجب:

- كيف عرفت ذلك؟

- أنا صديق (هادي). حدثني كثيراً عنك. قال لي: إنك ولدٌ طيب.

اللعنة على هكذا صداقة. رددت عليه في نفسي:

- أنا طيب، وأنت شيطانٌ رجيم.

اعتذرت منه متحججاً بانشغالي. حملت عدتي وابتعدت عنه مسرعاً، وعدت للمنزل خائفاً. أتلفت خلفي في كل خطوة أخطوها. فقد أرعبتني فكرة أن يكون خلفي يتبعني.

عندما وصلت إلى البيت، وجدت أبي ينتظرني بعصبية عجبت منها. وقف أمامي غاضباً. صفعني وركلني. رفعني في الهواء وخبط بي الأرض. احتميت بأمي التي أتت نحوي مسرعة. أبعدته عني وحاولت تسكين غضبة.

عرف أبي أني تركت المدرسة. يومها ضربني لأنه اعتقد أني امتهنت السرقة وأعمالاً أخرى سيئة. أخبرته عن عملي بمسح

السيارات وحلفت له بحقيقة ذلك. سكن غضبه وصدقني واقتنع بتركي للمدرسة التي لم يهتم بها أصلاً.

قال لحظتها: إنه سيحاول إيجاد عمل لي بدلاً من مسح السيارات. ربما بسطة أخرى بجانب بسطته. عارضته أمي غاضبة، وعنفته بشدة.

في اليوم التالي أخذتني أمي إلى المدرسة تجرني غصباً. قابلتْ المدير وحدثته لكنه رفض انضمامي مجدداً. الملعون وجدها فرصة للتَّخلص من طالب عربي آخر. رجتهُ أمي وتوددت له كثيراً، ومع ذلك كان يزداد كبراً وعناداً، ويسمع لها دون اهتمام.

الحيوان كان يتجاهل أمي. احتقرته عليه اللعنة. تمنيت لو أكسر كبره وأدوس على وجهه بحذائي. أمسكت يد أمي وحاولت سحبها للخارج. رمقتني بغضب، فتوقفت منكسراً، واستكملت تسترضيه، متحملة كبريائه، ومتجاهلة إهاناته.

بعد وقت طويل من توددها، وافق متعالياً. فَشَكرتْهُ بحرارة. وانصرفنا عائدين إلى المنزل. خرجتُ واجم الوجه، وخرجتْ هي بوجه بشوش.

ذهبت إلى المدرسة في اليوم التالي متثاقلاً. فرح (رسول) بعودتي. صافحني وشفتاه راسمة ابتسامة عريضة. واجهتُ فرحه بجفاف وتجاهلت أسئلته واستفساراته عن سبب انقطاعي.

تمنيت أن تكون حياتي كابوساً، أفيق منه. فأجد نفسي وعائلتي بمكان أفضل، وعالم أبيض، ومدرسة أروع.

كنت ازداد كرهاً للمنهج الدراسي في كل يوم يمر، وأشعر بالغثيان كلما طالعته وتدارسته. صورة المواطن العربي فيه يشوبها النقص والعيب. يضعونه في أوضاع اجتماعية حقيرة، فقير أو راعي أغنام. أما الفارسي فيظهرونه تاجراً، فارساً، أو عالماً يتصف بالحكمة والوقار. تباً لهم، ولمنهجهم.

حدثت أمي، ولمتها مخاطباً:

- أعمل أفضل من أن أدرس. ماذا سأستفيد من دراستي هذه؟ كرهت المدرسة.

-قد تتغير الأوضاع إلى ما نريد ونشتهي فتتمكن من دخول الجامعة إن شاء الله. ولتحمد ربك فغيرك يتعلم في داخل خرابة.

كررت عليها بحنق:

- أكره المدرسة.

أجابتني بتهكم:

- هذا لأن روحك استلذت الدوران في الشوارع.

توقفت عن الكلام معها، ورددت في نفسي: أكره المدرسة. أشعر أني لا أنتمي إليها، أني غريب بداخلها. الطلبة الفرس أكثر من العرب، والمعلمون أيضاً.

ليتني انتقل لمدرسة أخرى. لواحدة من تلك الخرابات التي أعابتها أمي، التي خصصت لتكديس الطلبة العرب فيها، فهناك بينهم لن أكون غريباً.

❖❖❖❖❖

15

هجرة أبي

طالب فارسي يتهجم على عربي. تشابكا بالأيدي. أسرعت أفصلهما ونجحت في ذلك. شتم الطالب الفارسي أمي. لم أتمالك نفسي. وجهت له لكمة في وجهه، وأخرى في بطنه، فتقرفص في مكانه متألماً، ثم خرج من الصف ودموعه على خديه، ويديه على بطنه متوجهاً نحو مكتب المدير. لم أعره اهتماماً. اللعنة عليه هو والمدير.

بعد وقت ليس بالطويل، استدعاني المدير، وتوجه بي مع أحد أفراد قوات البسيج إلى باب المدرسة دون أن يقول شيئاً، هناك، كانت تقف سيارة سوداء. بجانبها رجلان.

سار بي المدير إليهم فحملوني بقوة ورموني لداخل السيارة. حاولت أن أفلت منهم لكني عجزت عن ذلك. صرخت بأعلى صوتي مستغيثاً، فضربوني وهددوني، ثم ربطوا يديَّ وعصبوا عينيّ.

تحركت السيارة فتذكرت الرجال الثمانية الذين شاهدتهم يعلقون على حبال المشانق. تخيلت أني أعلق معهم عندئذ بكيت بصمت وألم، ولعب بي الخوف كقشة وسط رياحٍ عاصفة.

توقفت السيارة بعد فترة طويلة. وصلنا ولا أدري إلى أين؟ فُتح باب، أدخلوني ثم أُغلق. تناقص نَفَسي وخفق قلبي بشدة. وسرت معهم غصباً عني. إن توقفت يجروني سحباً مع صفع وركل. أوصلوني لآخر نقطة. ربطوني من رجليَّ ومنهما علقوني في الهواء، فأصبحت الدنيا مقلوبة عندي، ثم انصرفوا وتركوني كما أنا.

عشعشت عاصفة من الأفكار السوداء والتخيلات المرعبة في رأسي حتى أحسست أنه سينفجر. وتمنيت حقاً أن يحدث ذلك، كي ينتهي الصراع المُر الذي نشأ في داخله.

صرت أفز كلما سمعت صوتاً حتى ولو كان في خيالي، ويتزايد خوفي ويرتعش جسدي كلما أحسست بخطوات أقدام قريبة مني.

جعلوني معلقاً لفترة طويلة. تخدر جسدي، وشعرت بالغثيان ورغبة شديدة لاتقيأ. قاومت ذلك دون جدوى. السائل الذي خرج من فمي، خرج أيضاً من أنفي. أزعجني وأزعجتني رائحته المرضية.

ازدادت حالتي سوءاً وشعرت أن الخوف يخنقني. ماذا يريدون مني؟ أ كُل هذا بسبب ضربي للطّالب الفارسي؟ عليهم لعنة الله.

تذكرت الولد الأصلع. أنا في السجن الآن. بل أشعر أني في مكان أسوأ منه. قد يجبرونني على تعاطي المخدرات مثله والعمل لديهم. أو قد يحدث لي ما هو أشنع من ذلك. حقاً غرقت الآن في وحل بؤسه.

فكرت فيه متسائلاً: يا ترى ماذا يفعل الآن؟ هل مازال قلبه حياً ينبض في هذا العالم، أم همد تحت التراب بجرعة مخدرات زائدة. كما تمنى أمامي أن تكون نهايته.

ومن حيث لا أعلم، انهالت ضربة خيزران على ظهري. اهتزتْ نَفْسي وصحت بكل قوتي حتى أتعبني الصراخ. ألم الضربة كالنار يحرقني. تأوهت. بكيت وبكيت. تمنيت لو أقطع يد من خبطني، لو أعلقه في الهواء كما علقني.

هدأتُ بعد فترة متوقفاً عن البكاء. لكن قلبي لم يهدأ معي، فالألم مازال يحرقني.

- براى جى كتكش زدى؟ لمَ ضربته؟

صوت مخيف، بارد كالثلج يسألني بالفارسية. تجاهلته. فكرر عليَّ سؤاله:

- براى جى كتكش زدى؟

أجبته بشدة:

- به مادرم فوش داد. (شتم أمي).

- آيا أين دليل ميشه كه كتكش بزنى؟ (أهذا سبب يجعلك تضربه؟)

- راضي ميشى كسى به مادرت فوش بده؟ (أترضى أنت أن يسب أحد أمك؟)

- بيشعور، نتفه زنا. (وقح، ابن زنا).

- تو نتفه زناى. (بل أنت ابن الزنا)..

- به من جواب ميدى؟ عجيب. به تو نشون ميد مكى وجتور به من جواب بدى. (وترد عليَّ. عجيب. سأعلمك متى وكيف ترد عليّ).

شرع ينهال عليَّ ضرباً بالخيزرانة. طفقت أتخبط. جسدي هو الذي يهتز في الهواء. عدت للصراخ والبكاء. كان الألم يحرقني في كل جسمي. لم يرحمني، يضربني ويسبني ويسب أمي دون توقف.

لعنته بلساني وفي مخيلتي، شتمته بكل كلمة أعرفها. ازداد غضباً فاشتدت قوة ضرباته ليسكتني.

بدأت أغيب عن الدنيا، وشعرت اني أموت. وقتها اختفى إحساسي بالألم، وغمرني إحساس غريب. استسغت هذا الشعور وارتحت له. هذا أفضل لي. إن كان الموت هكذا، دون ألم، لأمت إذاً.

❖❖❖❖❖

أسمع صوت بكاء ونحيب بجانبي. أعرف هذا البكاء. إنه بكاء أمي. فتحت عينيَّ فوجدتني في البيت مرمياً على فراشي، وهي بجانبي تبكي وتنتحب.

تمنيت أن يكون ما حدث لي كابوساً، لكنه لم يكن. جسمي كله متورم ومكسي بكدمات لها ألوان مختلفة، وأعجز عن تحريكه.

وجدوني مرمياً بعيداً عن المدرسة كما قالوا لي. مكثت مريضاً لأسابيع لم أتمكن فيها من مغادرة البيت. أبي لم أره أبداً، فقط أمي وعمتي (زينب) التي تجر نفسها بمساعدة عكازها كلما مشت. تتحرك كالأشباح. تخيفني هيئتها، يدها اليمنى مبتورة، وقدمها اليسرى أيضاً، مثل أخي (حبيب). هو لم يكن يخيفني، فقط إذا نظرت إلى أجزائه المبتورة.

في شبابها كانت تعمل على مكينة خياطة. تخيط ملابس عربية وأعلاماً أحوازية للثوار في الخفاء. وشت بها إحدى صديقاتها المقربات فأتى المجرمون ليلاً. اقتحموا المنزل وانهالوا بضرب كل من فيه كما أخبرتني أمي سابقاً.

أخذوها واخذوا أبي معها. سجنوهما لثلاث سنوات. خرجتْ بعدها من محبسها بهيئتها الشبحية الشجية. أبي طالت فترة احتجازه سنة أخرى. خرج بعدها مُخفياً ما تعرض له من تعذيب تحت ملابسه.

حذرتني أمي من نبش الماضي والحديث عنه أمامها. قالت لي: إنها تنزعج كثيراً إن سألها أحد عمَ حدث لها؟

❖❖❖❖❖

في فترة مرضي لم أرَ أبي أبداً. عندما اسأل عنه يردون عليَّ ببرود وتجاهل، تقول عمتي (زينب):

- وجد عملاً في (طهران)، فذهب إلى هناك.

عجبت منها. أبي لا يحب (طهران). ولا يجيد الفارسية أصلاً، فكيف سافر إليها.

أمي كانت تعاكس قول عمتي. تقول لي:

- ذهب للعمل في (المحمرة).

أيقنت أن هناك شيئاً تخفيانه عني. تتجاهلاني كلما ألححت بالسؤال عن أبي. أحياناً تبكي عمتي عند ذكر أبي، وتبكي معها أمي. أخاف وقتها من سؤالهما وأرتعب من فكرة حدوث شيء له.

أجد عمتي تلعن المدير والمدرسة في كل يوم أكثر من مرة، وأنا وأمي نستمع للعناتها بصمت.

بدأت أمشي بعد بضعة أيام. أتحرك ببطء، وأحمل عكازاً يساعدني في ذلك. (رسول) يأتي لزيارتي وتسليتي في كل يوم. ينقل لي أخبار العالم، خاصة أخبار بلوتشستان التي يسمعها من والده.

قال لي عن واحدةٌ من الأحداث:

- تعرض مجموعة من الناس لتسمم جراء استنشاقهم مادة كيماوية مجهولة. من كثافتها، خرج الناس هاربين من منازلهم لأماكن بعيدة مكشوفة.

نظر إليَّ بحزن وأكمل:

- أبي قال بحسرة امتزجت بقهر وغضب: إن السلطات تجرب علينا أسلحة كيماوية.

❖❖❖❖❖

في الصباح الباكر، كنت أجلس أمام باب منزلنا. أمي تقول إن الشمس ستجعل عظامي أقوى، وستساعد على شفائي بشكل أسرع.

مرة وأنا جالس، سارح أتفكر، سار من أمامي بعض أولاد الحي. سلموا عليَّ. سألوني عن حالي وعزوني في أبي. انفجعت أمامهم وتركتهم أجر نفسي متوجهاً للداخل. سألت أمي عن أبي بغضب، فأخبرتني بما حدث على مضض.

بسبب ما جرى لي توجه أبي بجنون إلى المدرسة. تهجم على المدير ولعنه. لم يعد بعدها إلى البيت، ولا أحد يعرف عنه شيئاً، ومصيره الآن مجهول، مثل مصير أخي (محمد).

اسودت الدنيا في وجهي. كرهت نفسي ولمتها كثيراً. أنا السبب فيما حدث له. تمنيت لو أموت، لو أصبح جزءاً من العدم، لو قتلني الجلاد في السجن أثناء تعذيبه لي وأخفى جسدي كما يفعلون مع كثيرين لكان أهون.

بكيتُ أبي كثيراً. وصرنا ثلاثتنا، أنا وأمي وعمتي كالمجانين. كلما بكى واحدٌ منا، أبكى الآخرين معه. وكانت نوبات البكاء تزورنا في كل يوم أكثر من مرة بحزن وغم، وبقهر يعصر أرواحنا وجعاً، وحسرة تكوي قلوبنا ألماً وكمداً.

❖❖❖❖❖

في تلك الفترة الخانقة أحسست أن أمي تموت ببطء، وأن الأحزان تكالبت عليها لتهاجر بها. أصبح وجهها هزيلاً ومكفهراً، وعيناها حمراوتان وذابلتان وكأنهما تحتضران. شفتاها جافتان ومتشققتان. تأكل قليلاً، وتنتحب كثيراً.

من كثرة بكائها أيقنت أن الدموع ستنحت لها سبيلاً على خديها اللذين اعتصرهما الضمور حزناً. صرت أتأملها بصمت أليم، عاجز عن فعل شيء. أرتعب من فكرة أنها، هي أيضاً، ستهاجر إلى المقابر وتتركني وحيداً في هذا العالم البائس. أقسمت في خيالي أن أقتل نفسي فألحق بها إن رحلت وتركتني.

❖❖❖❖❖

16

القرار الصعب

يعيش خالي آدم في (طهران). لا أعرفه، ولم أره أبدا إلا من خلال صوره القديمة التي تحتفظ بها أمي. فهو لم يأت لزيارتنا ولو لمرة. نادراً ما تتحدث عنه أمي، ونادراً ما يتواصل معها عبر الهاتف.

في أحد الأيام تفاجأنا باتصاله. انفجرت أمي عبر الهاتف باكية، وبكى هو أيضاً كما أفادت أمي. آنذاك تحدثا طويلاً. كان حديثها معه مبهم، وترد على كلامه الطويل بعبارات قصيرة. سألت نفسي: ماذا يريد يا ترى؟

بعد أن انتهت المكالمة، سألت أمي ما يجول بخاطري. أجابتني بحيرة:

- خالك يريد منا أن نعيش معه في (طهران).

يبدو أنه أشفق علينا بعد سماعه بما حدث لنا. خاطبت أمي متسائلاً:

- هل سنسافر؟

أجابتني بحيرة اعمق:

- ربما.

في تلك اللحظات حضرت عمتي، تجر نفسها بمساعدة عكازها باذلة جهداً في ذلك. قالت بصوت هادئ وهي تلهث:

- الذهاب إلى (طهران) أفضل لكم. ما الذي ستجنونه في هذا المكان؟ اتركوا الحزن والكآبة هنا وارحلوا.

لم تجبها أمي بشيء وظلت صامته. تفكر كثيراً. يبدو أن قرار سفرنا إلى (طهران) أشغلها. شعرت أنها لا تريد أن تتزحزح خطوة واحدة خارج (الأحواز). فساعتها رأيت في نظرات عينيها تأملاً حزيناً، ترمق به زوايا البيت وأركانه.

في مساء اليوم الثالث من اتصال خالي، فاجأتني قائلة:

- غداً نذهب إلى إدارة التعليم كي نستخرج لك وثائقك المدرسية. هناك يعمل صديق قديم لوالدك. خالك أفاد بعدم وجود عائق يقف أمام استمرارك بالدراسة في (طهران).

شعرت باضطراب يسري في كامل بدني. لم أتوقع هذا الشيء منها وبهذه السرعة. لحظتها وافقتها على الذهاب بحزن وكآبة.

في صباح اليوم التالي توجهنا لإدارة التعليم. وصلنا في ساعة مبكرة. أمي لا تجيد الفارسية؛ لذلك طلبت مني أن أسأل عن الأستاذ (ياسين) صديق والدي القديم.

شرعت أسأل عنه. دلونا عليه في الطابق الثاني. هناك ميزته أمي عندما رأته. رجلاً قصيراً وسميناً. له كرش يسبقه في كل خطوة يخطوها. شعر رأسه أبيض. وله صلعة تتوسط سقف رأسه.

وجدناه يتحرك متثاقلاً بجانب مكتب صغير، ويقلب أوراق سجلات كبيرة، آنذاك، تقدمنا إليه وحدثته أمي بهدوء:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

- أنا زوجة (حسين)، وهذا ولدي (سجاد).

ارتبك متلفتاً حوله. وكساه القلق بشكل ملفت وغريب. وانسكبت قطرات عرق من جبينه بشكل مفاجئ. ثم رد عليها بالفارسية باضطراب واضح وبنفس متناقص قائلاً:

- خواهش ميكنم عربي با من صحبت نكن، نميخواهم كارم را از دست بدهم.

صمتتْ أمي متعجبة ونظرتْ إليه باندهاش، وشرعتُ أنا أتحدثُ معه، مخبراً إياه بحاجتنا. أخرج من جيب بنطاله الأسودَ منديلاً قماشياً أبيض ومسح به عرق جبينه ثم طلب منا الانتظار وبدأ يتنقل بين مكتبه ومكاتب أخرى.

سألتني أمي مستغربة من ردة فعله المضطربة. فترجمت لها ما قال: أرجوكِ، لا تحدثيني بالعربية، فأنا لا أريد أن أخسر عملي.

ابتسمتْ لي بحسرة، وأرسلتْ بصرها نحوه ترقبه بنظرات عميقة وآسفة، ثم غاصتْ شاردة تتفكر.

❖❖❖❖❖

17

انتقامي

في يوم سبت. قبل سفرنا بيوم، وبالتحديد في وقت المساء، ذهبت لشراء حليب من دكان الحي. وجدته مغلقاً فاضطررت للذهاب إلى دكان أبعد.

في طريقي رأيته يمشي، يتحدث عبر هاتفه النقال ويضحك. لعنته بيني وبين نفسي، وتبعته بسكون. في طريقي وجدت مجموعة أحجار، اخترت أكبرها، ونويت أن أقتله بها.

حدثت نفسي:

- سأريح الناس من شر هذا الملعون إن تمكنت من قتله.

دخل شارعاً لا إنارة فيه. لحقته والحجر في يدي. تمنيت لو ينقلب الحجر سكيناً. مشيت خلفه كلص. لم يكن هناك إلا هو وأنا خلفه أتبعه دون أن يشعر.

في تلك الأثناء، وسط ظلام الليل بوحشته وسواده تذكرت ما فعله. ثار الدم في عروقي بجنون، فتشجعت وأسرعت الخطى

نحوه. ومن دون أي تفكير أو تردد، ضربته بالحجر على مؤخرة رأسه بكل قوتي.

ترنح الخبيث لكنه لم يسقط. وهمَّ أن يلتفت باتجاهي. أسرعت أضربه بالحجر ثانية وثالثة حتى فار الدم من رأسه بغزارة ارتحت لها. عندها سقط الهاتف من يده، فتبعه سقوط بدنه البغيض، آنذاك، أطربني صوت الأنين الذي انبعث من حنجرته المرتعشة.

وقتها تركته يئن واختفيت من عنده كشبح. عدت للبيت أسابق الريح في ركضي. تمنيت أن ينزف حتى يموت، أن لا ينجده أحد ليختفي من هذا الوجود.

فكرت فيه وتساءلت: مدير مدرسة مغضوب عليه، من الذي سيحزن عليه أصلا!

❖❖❖❖❖

18

سفرنا

أتى موعد سفرنا في اليوم التالي. زاد اختناق أمي، وأحسست أني أختنق أيضاً. قبل سفرنا بساعة تقريباً أسرعت متوجهاً لمنزل (رسول)، ودعته وودعني بحزن عميق، ثم عدت إلى البيت.

لم تكن أمتعتنا كثيرة، فقط حقيبة صغيرة، تحمل احتياجاتنا البسيطة. يومها أغلقت أمي باب منزلنا وهي تبكي. سلمت نسخة من المفتاح لعمتي وأوصتها بتفقده بين الحين والآخر. ثم توادعتا بعبارات السلامة والبكاء.

قبلتني عمتي على جبيني وخديي قبلات كثيرة. وقبلتها أنا في يدها التي تمسك بها عكازها. ثم غادرنا متوجهين إلى محطة القطار. وتركناها واقفة أمام الباب ترقبنا بعيون دامعة.

كانت أمي تبكي بصمت، ويزداد انسكاب دموعها كلما اقتربنا من المحطة. زارني حزنها بقوة فقاومت نفسي حتى لا أبكي معها. رجوتها أن تتوقف عن البكاء. صارعت نفسها حتى توقفت. فتلألأت عيناها بدموع محتبسة.

❖❖❖❖❖

قطعتُ تذكرتي سفر، وجلسنا على مقاعد الانتظار. شعرت بالخوف. هذه أول مرة أسافر فيها. لم أشارك أمي خوفي. احتفظت به لنفسي. يكفي ما هي فيه.

بعد لحظات من انتظارنا ذهبت لشراء قنينة ماء. رفضت أمي أن تشرب، وشربت أنا بهدوء متفكر. فكرت في (رسول)، في الولد الأصلع الذي لم أعرف اسمه ولم يعرف اسمي أيضاً. فكرت في (هادي) وفي المدير الذي تمنيت أن أسمع خبر هجرته إلى المقابر. فكرت في أخي (حبيب) وفي أبي وأخي (محمد) المختفيين. فكرت في بؤس هذا العالم، في دهاليزه المظلمة. في الضباب الذي يغشى حياتي وحياة الكثيرين.

مشيت مرة من جانب مقبرة. أغراني هدوءها، وشعرت بقوة خفية تجذبني نحوها. تمنيت لو أكون بينهم، نائماً مثلهم. فكرت فيهم بعمق. سكان المقابر، لا يزعج بعضهم بعضا، ولا أحد منهم يمارس سوءاً على أحد. ينامون متجاورين بسلام، حتى وإن كانوا أعداء في صحوتهم الدنيوية. سكونهم أطربني، فما أروع صمتهم الأبدي!

كنت شارداً أتفكر، وأمي جالسة بجانبي، خافضة رأسها إلى الأرض بعيون يملؤها الدمع المحتبس. وشاردة هي أيضاً بتفكير أشد حزناً وبؤساً مني. وكأن معاناتها تفوق معاناة هذا العالم بأسره.

مسكينة. تحمل بؤسها في جسمها الهزيل، الذي لم يعد يحتمل ذبولاً أكثر. ما أتعسها وهي تقسو على نفسها.

لم أعد أتذكر متى ضحكنا أو ابتسمنا آخر مرة. أشعر أن السعادة قد هجرتنا للأبد. يبدو أنها هي أيضاً قد هاجرت إلى المقابر مع من هاجروا؛ حقاً هي سراب وواهمٌ من يثق بها: فهي آتية هاربة، وواهية كخيوط العنكبوت.

وصل قطار رحلتنا. أخبرت أمي بذلك. قالت لي بصوت والكآبة تهتز فيه:

- ليته لم يصل.

ابتسمتْ بذبول، ونظرت إليَّ والحزن يتوهج في عينيها البراقتين، ثم قالت لي وهي تصعد إلى القطار:

- لنجرب حظنا في (طهران).

هنا في (طهران)، تكتظ محطة القطار بالمسافرين. زحامها خانق، والناس فيها يسيرون بخطوات متواصلة وعلى عجل غريب.

وجدنا خالي ينتظرنا بتوتر. أمي لم تره منذ سنوات عديدة، حددتها بعشرين سنة. تعانقا والدموع تنهال من عينيهما، وسلم عليَّ معانقاً أيضاً.

أخذَنَا بسيارة أجرة إلى منزله. في الطريق، كان يتحدث معنا ضاحكاً دون توقف، وأمي تسايره. تبادله ضحكاته بفتور واضح غصباً عنها.

لحظة وصولنا، استقبلتنا زوجته وسلمت علينا ببرود. أمي لا تعرفها. خالي تزوجها دون أن يعلم أحد بذلك. له منها ابنتان: أمل ونغم. لا تتحدثان العربية، فقط بضع كلمات تخرج من أفواههن مكسرة.

خصص خالي حجرة صغيرة لي ولأمي في بيته المتواضع ذي الثلاث غرف. كانت مستودعاً، فأفرغه من محتوياته وجعل زوجته تنظفه قبل وصولنا كما عرفت لاحقاً.

في خالي شبه من أمي، وله بريق عينيها نفسه. حديثه هادئ دائماً، وصوته يمتزج بنغمة حزينة. يبدو أنه هو الآخر له نصيب من بؤس هذا العالم. يملك مطعماً صغيراً، يشاركه فيه رجل تركي. زوجته لا تتحدث العربية بشكل جيد. هي أحوازية، لكنها قضت معظم سنين عمرها هنا في (طهران).

كان خالي ينظر لي بعطف، وعيناه تلمعان بالحزن كلما رآني أو تحدث معي. لم تعجبني نظراتُ الشجن التي يرمقني بها. لا أريد شفقة من أحد، ولو من خالي هذا الذي لا أعرفه.

أمي صامتة، ولا تجد من تحدثه إلا أنا أو خالي الذي يعود مرهقاً في ساعة متأخرة في المساء. أحسست أن هذا الوضع يعجبها، فهي لا تريد أن تتكلم، وكأنها تستلذ الوحدة لتتعمق في دنياها أكثر وأكثر.

❖❖❖❖❖

19

الشيطان

وجدته على كرسي متحرك. يقود كرسيه بكلتا يديه في صعوبة، ويحاول أن يصل إلى آخر الشارع. ساعدته في ذلك. سقته بكرسيه إلى هناك. أوقفته بجانب عمود كهرباء كما طلب مني. يبقى جالساً بجانبه لساعات يترزق الله كما قال لي.

الناس تنظر إلى شكله الرث برجليه المبتورتين من أعلى ركبتيه فيرحمون ضعفه ويحزنون على هيئته الشنيعة وكثير منهم من يقرف منها كما أفاد لي حانقاً.

بعض القلوب تلين له فيرحمونه ويحسنون إليه، وقلوب أخرى يكتفي أصحابها بالنظر إليه بحزن فقط، ومنهم من يحملق فيه بعيون مشمئزة وكأنه مسخ.

قال لي:

- نظرات الناس الحزينة أو المشمئزة لا تفيدني في شيء، بل تزيدني بؤساً وأسى.

أضاف لي قائلاً:

-أنت ساعدتني اليوم على الوصول. غيرك أيضاً يساعدني. أحياناً لا يرحمني أحد، فأضطر لأسوق نفسي بيديَّ، باذلاً جهداً ووقتاً في ذلك. كثيرون يمرون من أمامي يشاهدوني فقط. دون أن يعرضوا عليَّ مساعدتهم. أنقم ساعتها على العالم وكل من يعيش فيه.

جلست بجانبه أستريح وسألته بتردد:

- ما الذي حدث لك؟

- دهستني سيارة قبل عام. مكثت شهراً في المشفى. من دهسني أعطاني بعض النقود وتنازلت عن حقي.

- من أين أنت؟

- من إحدى قرى أصفهان. وأنت.

- أنا عربي من الأحواز، الأحواز العاصمة. أليس لديك أحدٌ من أقاربك يساعدك على التحرك والتنقل؟

- لا، ليس لي أحد في هذا العالم إلا هذا الكرسي الذي أقبع عليه.

- لماذا لا ترجع إلى قريتك في أصفهان اذاً؟

- ليس لي أحدٌ هناك. ماتوا. كلهم ماتوا.

سألته متعجباً:

- كلهم ماتوا. أبوك، أمك، إخوتك!

- نعم، كلهم ماتوا.

نظرت إليه بحزن عميق، فابتسم لي مخاطباً:

- قصتي غريبة، غريبة جداً.

أجبته بحماس:

- اسردها علي، أحب أن أسمعها.

اضطربَ وتردد، ونظر إليَّ بعيون حائرة، مستغرقاً وقتاً في ذلك. بعدها شرع يحكي لي قصته.

قال لي:

- كان أبي سكيراً، قاسياً وظالماً. حديثه صراخ دائم. يضربني ويضرب أمي بسبب وبدون سبب. لا يمر يوم إلا وينقلب فيه البيت رأساً على عقب.

كنت الابن الوحيد لتلك العائلة التي أنهكها الفقر، وزاد الأب بشربه وجمود مشاعره بؤساً لها فوق شقائها المتجذر.

عندما بلغت سن الثانية عشرة، بدأ بطن أمي بالانتفاخ شيئاً فشيئاً. اكتشف أبي حملها، فانفجر غاضباً كبركان، وتوجه إليها بهيئة شيطان.

كانت عيناه تشعان بنار من الغيظ والسخط. ضربها حتى قلت إنه سيقتلها. هجمت عليه محاولاً إنقاذها، لكن شيطانيته كانت أقوى مني ومنها. ومع تعالي أصواتنا الصارخة، أغاثنا الجيران من براثن إرهابه. خرج بعدها مهدداً بهجره لنا، متوعداً أنه سيتركنا نموت جوعاً، وأنه لن يعود إلينا أبداً.

لعنته بيني وبين نفسي، وفرحت برحيله متمنياً أن يأخذه الموت، وأن لا يعود إلينا أبدا كما قال. ليذهب إلى جهنم، فقد أصبح البيت بدونه أهدأ وأجمل، والحياة صار لها طعم حلو عندما تركنا؛ لذلك، خفت في نفسي أن يعود، فيطفئ شمعة الاطمئنان وراحة البال التي أوقدت في بيتنا برحيله المتأخر.

مع مرور الأيام صارت أمي تتأفف كلما أصبح بطنها أكبر. أوقات اسمعها تلعن نفسها، وتلعن أبي، ومن تحمله في بطنها أيضاً.

بعد تسعة أشهر من حنقها وتأففها اليومي. أنجبت طفلة. اسمتها (ميار). هكذا أصبح لتلك الزهرة اسم ندعوها به في هذا الحياة.

في تلك الفترة كانت (ميار) تشكل مصيبة لأمي، وجنة لي. أنا الوحيد الذي فرحت بقدومها. ألاعبها دائماً. أضاحكها وأعمل جاهداً على إسكات بكائها الشبه دائم. جارتنا (ملكة) من كانت ترضعها وتعتني بها بجانب طفلها الذي تجاوز السنة. أما أمي فلم

تكن متواجدة في البيت كثيراً. أوقات تغيب أياماً في عملها كخادمة عند بيت أحد التجار في القرية المجاورة لنا.

لا أعلم كيف قبلوها بشخصيتها البغيضة. رغم ذلك فقد كانت أقل بغضاً من أبي، وأدفأ مشاعر.

عندما تجاوزت (ميار) سن الثالثة. تغيرت طباع أمي الجافة. وصارت تشتاق لها ولي كلما ذهبت إلى عملها، فمرت علينا ثماني سنوات ونحن على حال ممتلئ بالسكون الدافئ. الحب يسكن بيتنا ويتعمق بيننا. والهدوء يزينه. حتى عاد الملعون ليختفي كل شيء، وكأن حياتنا بدونه كانت عبارة عن سراب أو حلم جميل مر بنا للحظات قصيرة واختفى.

عاد بهيئته الشيطانية. لم يتغير أبداً، بل زاد سكره وزادت عربدته. عاد ليؤرق هدوء حياتنا بخبثه وشربه. كرهته أكثر مما كرهته سابقاً.

أصبح يضيق صدري كلما شاهدته متجولاً بأرجاء البيت. أو جالساً على سطحه. أو ماشياً يترنح بعقل غائب في فنائه. خاطبت نفسي: لم أعد ذلك الطفل الصغير الذي كان يضربه بسبب وبدون سبب. لن يتمكن من أذيتي بعد الآن. أنا من سيضربه إذا حاول التعدي عليّ أو على أمي أو (ميار). أنا من سيؤدبه، سأرميه خارج البيت ليعود من حيث جاء إن فعل شيئاً لا يعجبني.

صرت أرمقه بنظرات حادة، وأتلصص عليه كثيراً مراقباً أفعاله وتصرفاته، خاصة أن مكوثه الدائم في البيت أقلقني، وصار بدوره يتحاشاني ويتجنب الحديث معي. يبدو أن هيئتي التي تغيرت عن صورة الطفل يوم تركني عليها جعلته يحتاط مني.

أصبحتُ الآن رجلاً وأملك سواعد فتية أقاومه بها. لكن مكره وخبثه أخافاني. لا أمان له. إنه حيوانٌ خبيث. مخادع وماكر. ينتظر فرصته بلهفة ضبع جائع.

خافت أمي أن نتقاتل، فيقتل أحدنا الآخر. بسبب خوفها، عمدت على إطفاء غضبه عندما يبدأ اشتعاله. تعطيه مالاً يشتري به خمراً. يسكته يوماً أو يومين، ثم يعود بعدها لاهثاً ككلب وجائع لا يشبع. فتعطيه ثانية ما أراد لتسكته. تصمت عندما أعاتبها على فعل ذلك. ليتها لا تعطيه شيئاً لأرى ما سيفعل الحيوان.

مر علينا عام وهو على هذه الحالة، قابع في البيت دون عمل. عقله غائب أكثر من حضوره. يستلذ ببطالته. يسكر وينام، ويأكل ويشرب فقط. مثل البهيمة.

❖❖❖❖❖

يوماً أقلقتني عيناه ووترتني. الخبيث ينظر لـ(ميار) بعيون لا تعجبني. يرقبها كثيراً. تأمله الطويل لها أفزعني. ألعن نفسي عندما أفكر بنظراته على النحو الذي ترجمتها في خيالي. حدثت نفسي محاولاً طرد الكوابيس العفنة من رأسي: أبدا حتى وإن كان

الأب عربيداً وسكيراً، لن يفكر بهذه الطريقة تجاه ابنته التي لم تتجاوز سن العاشرة.

عليه لعنة الله. ليس له أمان؛ لذلك عمدت على أخذها معي، يومياً، إلى عملي برعي ماشية سكان القرية.

في أحد الأيام أصاب المرض أمي. ارتفعت حرارتها وصارت طريحة الفراش لا تقوى على الحركة. مكثت (ميار) بقربها تهتم وتعتني بها، وذهبت إلى عملي وحدي، تاركاً أمي و(ميار) وحدهما مع الشيطان في المنزل. لم أتخيل يومها أنه سيقوم بعمل فعلٍ شيطاني، خاصة أن أمي قابعة في البيت.

وأنا جالس أرقب الماشية، شاهدت امرأة من بعيد، تمشي باتجاهي وتقع. سقوطها أكثر من سيرها. توقعت أن تكون إحدى مجنونات القرية، جُذبتْ فوجدتْ طريقها للخروج هاربة من بيت أهلها المحبوسة فيه. حينما اقتربت مني أكثر، ميزتها. كانت أمي. جريت نحوها مفزوعاً. أجلستها مسنداً ظهرها إلى صخرة كانت قُربنا. نظرتُ إليها وعيناي متسعتان مفزوعتان وقلبي ينبض بقوة.

بلعت ريقها ومسحت دمع عينيها ثم تحدثت معي وهي تبكي بصعوبة ونَفَسَها يتقطع. أخبرتني أن الخنزير، أخذ (ميار) من أجل أن يبيعها لشاهندماني «أحد التجار المتاجرين بالبشر في القرية المجاورة». جن جنوني وأحسست أني سأفقد عقلي. تركت أمي وأسرعت أجري عبر الطريق المؤدي لقرية التاجر.

ثار دماغي وتزاحمت الأفكار الشيطانية متصارعة داخل رأسي. نويت أن أقتله، وأقتل التاجر أيضاً إذا اشتراها.

في الطريق وجدته عائداً فرحاً، شارباً يترنح. بيده قارورة خمر ويعد فلوس البيع بصدر منشرح وابتسامة خبيثة. رآني فاضطرب وأخفى المال خلف ظهره. اقتربت منه وسألته بصوت امتزج بحقد عميق:

- أين أختي؟

أجابني ببرود:

- لا أعلم.

وضعتُ كلتا يديَّ حول عنقه وعمدت على خنقه. خرجتْ غرغراتٌ من حنجرته، وتوسل إليَّ بتمسكن شيطان أن أتركه. تركته وخطفت المال من يده. ورميته خارج الطريق مع قارورة خمره وتابعت ركضي وأنا ألعنه.

منزل التاجر كبير، له سور يخفي نصف طوابقه الثلاثة. كان مشهوراً بشراء الفتيات الصغيرات الفقيرات، واللاتي أكثرهن يتيمات. يتاجر بهن في (طهران) وأماكن أخرى.

عندما وصلت إلى منزله وقفت أمام البوابة الرئيسية. وخاطبت الحارسين المكلفين بحراستها قائلاً:

- أريد أن أقابل السيد شاهندماني.

- ماذا تريد منه؟

- عندي فتاة أريد أن أبيعها له.

لن أتمكن من لقائه إذا لم أجبهم هكذا. قال لي أحدهما بعد أن رمى سيجارته التي انتهى من تدخينها:

- فاتك هذه المرة. عُد بعد أسبوع من الآن.

- لماذا؟ أريد أن أنهي الموضوع معه في هذه الساعة.

- السيد توجه إلى (طهران) قبل قليل يحمل دفعة. سيعود بعد أسبوع لتجهيز دفعة أخرى جديدة. يمكنك أن تقابله وقتها.

لم أتمالك نفسي. بكيت أمامهم، وتعجبوا من ذلك. غزاني الحزن والقهر معاً، وعدت مهموماً، خائباً.

انفجعتُ يومها بموت أمي في المكان الذي تركتها فيه. تمنيت لو تنشق الأرض وتبلعني إلى داخلها، فتخفيني عن هذا الوجود معها.

يومها جهزناها للدفن بمساعدة إمام القرية. دفناها وجلست بجانب قبرها حتى أسدل الظلام سواد جلبابه. ثم ودعتها باكياً، وأقسمت أني سانتقم لـ (ميار) ولها أيضاً.

❖❖❖❖❖

توجهت لبداية مدخل قريتنا. اخترتُ مكاناً بعيداً عن الطريق وتتكاثر فيه الأشجار. قمت بعمل حفرة طويلة وعميقه. استغرقت ساعات في ذلك. عندما انتهيت من حفرها أخفيتها ببعض الأغصان المورقة، ودفنت بجانبها سكيناً كنت قد أخذتها معي، ثم عدت إلى المنزل، أمشي حزيناً كئيباً، هناك، وجدته جالساً بجانب النافذة ينتظرني. رآني فانتصب واقفاً ونظر إليَّ بغضب متفجر وقال:

- أين فلوسي؟

- أخفيتها. دفنتها تحت التراب.

- أين أخفيتها؟ أخبرني وإلا دفنتك بجانب أمك يا ابن الزنى.

حمل عصا في يده كان قد جهزها من أجلي. سحبني للخارج بقوة وقال:

- هيا أرني أين دفنت مالي.

مشيت أمامه. وسار خلفي يوكزني بعصاه بين الحين والآخر. وكأنه يذكرني بوجودها. لم يعلم أني أخفيت من أجله سكيناً، بجانب الحفرة (مسكنه الجديد).

سرت أمامه وأنا أفكر كيف أقتله منتقماً منه. اشتهيت أن تكون نهايته بشعة على يدي. نهاية أطرد بها الكره المتجمع. والمتزاحم داخلي.

أثناء تفكيري صُعقتُ من نفسي ومن تفكيرها الممسوخ. توقفت عن التفكير للحظة، لحظة طويلة، وسألت نفسي مندهشاً من الجنون الذي أصابني: ما الذي يحدث لي؟

شعرتُ أني شيطان مثله، أفكر مثلما يفكر، وأكره كما يكره. بل أحسست أن شيطانيتي تفوقت على شيطانيته. إن نفذت انتقامي. سأكون قاتلاً. سأزهق روحاً تدب في جسد. ماذا يحدث لي؟ الرجل الوحيد الذي كرهته في هذا العالم، ونفرت منه ماقتاً، وباغضاً روحه وتصرفاته، أفكر مثله الآن، بل ألعن منه.

فكرت كثيراً فيما كان يحدث لي؛ فعدلتُ عن تنفيذ انتقامي. أبداً لن أكون شيطاناً مثله.

وصلنا فتوقفت. سألني بحذر:

- لمَ توقفت؟

- أخفيت المال هنا.

- إذاً أخرجه يا ملعون.

توجهت إلى المكان الذي أخفيت السكين فيه. جثوت على ركبتي، ثم حفرت وأخرجتها. لا أعلم ما الذي حدث لي عندما رأيتها وحملتها في يدي. مس شيطاني رجيم أصابني من جديد. التفتُ إليه والسكين في يدي أداريها خلف ظهري حتى لا يراها.

خاطبني بغضب متزايد:

- أين مالي؟ هيا أعطني ما....

غرزت السكين في بطنه قبل أن ينهي كلامه العفن، وخاطبته صارخاً بحقد:

- لتمت أيها الشيطان، ولتذهب إلى جهنم. ستكون الدنيا أجمل وأنت خارجها. ستصفو الأرض عندما تسكن تحتها. عليك لعنة الله.

كانت هذه أول مرة أتكلم معه بما أشعر ومن دون أن أخاف، أو أخفي شيئاً بداخلي.

لم تنته غرزة واحدة. فأخرجت السكين بعنف وغرزتها بقوة، ثانية وثالثة، ورابعة وخامسة. رغم ذلك لم يسقط، فعلا هو شيطان. أخافني. يحاول مقاومتي والهجوم عليّ في كل غرزة أقوم بها. عيناه متسعتان وتلمعان دماً في الظلام كعيني شيطان. كانتا بارزتين وكأنهما ستخرجان وحدهما للقضاء عليّ. اقشعر جسدي، وزاد رعبي، فأغمضت عينيَّ وواصلت طعنه في أماكن متفرقة من بطنه وصدره حتى سقط، جثة هامدة. لا أنفاس تخرج منه، ولا يهتز جسده اللعين بحركة.

جلستُ ساعة بقربه، ممسكاً سكيني في يدي، ومستعداً له، خائفاً من أن ينهض على غفلة مني. حتى بعد موته شعرتُ بالذعر

منه. عندما تأكدت من موته، سحبته بعنف ورميته لداخل الحفرة التي جهزتها من أجله. تلذذت بالهدوء الذي كساه؛ فهلت عليه التراب بارتياح كبير.

دفنته مهدداً، إن لم أستعد أختي سآتي إليه كل يوم وأبول على قبره، بل سأجعل قبره مرحاضاً لأطفال القرية. بصقت عليه وانصرفتُ غاضباً لاعناً العالم ومن فيه.

❖❖❖❖❖

في ساعات الفجر الأولى، توجهت إلى (طهران) بعد أن رشوت أحد حراس التاجر. عرفت منه عنوان بيت الدعارة الذي يملكه التاجر الشاهندماني في (طهران).

أخبرني الحارس أن عصابتهم لا تعمل وحدها، بل ترتبط بعصابات أخرى، مكونين بذلك شبكة عنكبوتية لا يعرف أحدٌ بدايتها من نهايتها. لهم قوة ونفوذ لا يصدق، فحكومات تعمل معهم وتساعدهم في تجارتهم. أخبرني أيضاً، أن جميع الفتيات الصغيرات يتم إخراجهن من (إيران) والمتاجرة بهن في دول أخرى. لهن سعرهن الخاص والمرتفع. نصحني يومها بنسيان الأمر.

قال لي محذراً:

- ستختفي أختك للأبد، ولن تقدر على تغيير ذلك. أنصحك بالابتعاد عنهم. ستهلك إن حاولت الوقوف عكس تيارهم.

لم أبالِ به وبكلامه. لا أعتقد أني سأتمكن من استنشاق هواء هذه الحياة إن لم استرجع أختي.

عندما وصلت إلى (طهران)، توجهت فوراً مستقلاً سيارة أجرة إلى المكان (العنوان الذي أعلمني به الحارس). هناك دهستني سيارة وأنا أخطو أولى خطواتي محاولاً تجاوز الشارع. لم أفق بعدها إلا في المشفى، بحالتي هذه، عديم القدمين.

صمتَ ونظر إلى قدميه المبتورتين. تأملهما بحسرة للحظات طويلة، ثم تساقطت دموع على خديه، وطفق يمسح ما تبقى من قدميه بكلتا يديه.

أكمل لي قائلاً:

– لا اختلف عن العصفور السجين في شيء، هو سجين في قفص، وأنا في هذا الكرسي. بل يتفوق العصفور عليّ، فهو يبقى معلقاً بالأمل، ينتظر حريته. أما أنا فقد سُرق الأمل مني للأبد.

❖❖❖❖❖

20

صديقي الفارسي

ابتعدتُ عن الشارع متجولاً في أماكن أخرى. وصلت إلى أحد المتنزهات. تملؤه الأشجار وتعلو فيه زقزقات العصافير بنغمات موسيقية تريح النفس المثقلة بالمتاعب. والناس يتجولون فيه بأريحية وكأن المكان متنفس لهم للخروج من أعباء هذه الدنيا وهمومها.

وأنا أتأمل المكان ومن فيه شاهدت طفلاً نائماً في حجر أمه، وهي تبتسم له بحنان وتنظر إليه بأمل وتداعب بأطراف أناملها وجنتيه المتوردتين. ساعتها تمنيت أن ارجع طفلاً رضيعاً في حضن أمي، تهدهدني بذراعيها كلما بكيت. قلبتُ بعدها بصري فرأيت ولداً في مثل سني. يحمل كرة في يده، ويلعب بها وحيداً. جلست أرقبه بصمت، وبعد لحظات من مراقبتي له انتبه عليَّ فنظر إليَّ وابتسم ببراءة. ثم اقترب مني، وعرض علي بلطف قائلاً:

- أتحب أن تلعب معي؟

وافقته دون تردد. سألني:

- ما اسمك؟

أجبته:

- سجاد. (أضفت سائلاً: وأنت.)

- رستم.

شرعنا باللعب. لعبنا حتى أوقفنا التعب. أمضيتُ وقتاً رائعا معه. إنه ولدٌ فارسي طيب.

عندما انتهينا قال لي:

- ما رأيك أن نلعب غداً أيضاً؟

أجبته بهدوء:

- أنا عربي، أحوازي.

نظر إليَّ بعينين مندهشتين وقال لي مستغرباً:

- لم أفهم!

عجبتُ منه. ما الذي لا يفهمه؟ قلت له محاولاً أن أفصل أكثر:

- سيغضب عليك والداك إن عرفا أنك تلعب مع عربي.

نظر إليَّ بدهشة أكبر من سابقتها. يبدو أنه لم يفهمني أيضاً. عجبت منه أكثر وأسرعت أقول له:

- حسناً. غداً أجدك هنا لنلعب.

ابتسم لي ابتسامة خفيفة من طرف شفتيه الصغيرتين، وقال بانشراح:

- في الزمان والمكان نفسهما إذاً.

هززت له رأسي قائلاً نعم، فسلم علي وانصرف مبتهجاً، يجري حاملاً الكرة بين يديه.

عدتُ إلى الرجل المُقعد. كانت الشمس قد أوشكت على الغروب. سلمت عليه، ثم سقته إلى مسكنه. سرتُ به في زقاق عتيق وحي ذات مبانٍ معظمها قديم ومتهالك. أخرج وقتها من داخل قميصه الأسود كيساً أبيض من قماش رث، يجمع فيه المال الذي يتحصل عليه من المحسنين. انهمك آنذاك يحسبُ ما جمع، وأنا أتأمله بحزن وأرقبه بصمت.

أوصلته. مسكين. بؤسه يقبع أيضاً في مسكنه. يقطن في حجرة صغيرة، تكفيه لوحده فقط، بجسمه غير المكتمل. بجانبه مرحاض. هو جزء من حجرته الحقيرة.

شكرني ورجعتُ إلى البيت خافضاً رأسي، أمشي على مهل. فكرت وقتها في (رستم)، وحدثت نفسي: غداً لن يعود. سيحكي لوالديه عني؛ فسيغضبان منه ويعنفانه كثيراً لأنه تحدث ولعب مع عربي.

يومها عاد خالي إلى البيت مبكراً. كان مضطرباً، يمشي على مهل بتردد. يضرب كف يديه في بعض ويردد كثيراً بصوت خافت حزين: لا حول ولا قوة إلا بالله.

انشغل بال أمي عندما رأته هكذا، ففزتْ تسأله مذعورة. حينها فكرت متسائلاً: من مات هذه المرة يا ترى؟ (أضفت لنفسي: لم يعد هناك أحد أحزن عليه في هذا العالم المتحجر غير أمي. فليمت من يمت، يرحمه الله على أية حال).

أمسك خالي بيد أمي، ثم أجلسها وجلس هو بجانبها. كان الحزن يتطاير من عينيه ومن صوته الخافت الذي يحدثها به. تلصصتُ عليهما بتوتر وقلق، وسمرت عينيَّ أرقب أمي وأرقب نظرة عينيها المفزوعة بقلق أكبر.

بعد بضع كلمات قليلة من حديث خالي، انفجرتْ أمي باكية، وانتحبت بصوت عالٍ. طفقت تمزق ملابسها حزناً وكمداً، وتضرب نفسها وخالي يحاول جاهداً الإمساك بها. ملعون هو الحزن. لم يتركنا وشأننا. فقد تبعنا إلى (طهران) وكأنه جزء منا.

في تلك اللحظات، حضر خالي يخبر أمي بموت أبي واخي المختفيين. قال إن صديقاً له استطاع أن يكشف مصيرهما. فقد تم إعدامهما في الخفاء، ودفنهم في مقابر لعنة أباد كما أفاد له صديقه.

بكيت مع أمي، لكن ليس كالسابق. كان حزني أخف. الموت هو المصير الذي توقعته لهما عند اختفائهما. أيامها ازدادت حالة أمي سوءاً. صارت طريحة الفراش، وتريد أن تموت، أن تهاجر إلى المقابر، أن تتركني وحيداً وترحل. ترفض أن تأكل. قليلاً فقط مع إصراري، أو إصرار خالي لها. وما زلت لا اعرف ماذا يمكن أن افعل من أجلها.

في اليوم التالي ذهبت لمنزل المُقعد. طرقت عليه الباب. لم يرد عليَّ فتوجهت إلى المكان الذي يتسول فيه. هناك وجدته. بجانبه ولدٌ يكبرني. يحمل في يده صحفاً ليبيعها. سلمت عليهما، وخاطبت الرجل المقعد قائلاً:

- مررت على مسكنك، توقعت أن تكون هناك.

- أشكرك. (غفار) اليوم ساعدني.

(غفار) هو الولد الذي يبيع الصحف. يحاول بيعها على المارة وملاك السيارات. جلستُ بجانب المُقعد. أرقب (غفار) الذي شرع بالعمل. كان يتنقل بين المارة والسيارات عارضاً عليهم الصحف. يتحرك بخفة منتقلاً من شخص لآخر، ومن سيارة لأخرى. عندما تعب، جلس بجانبنا، وشرب ماء من قنينة أحضرها معه.

حدثني سائلاً:

- ما اسمك؟

- سجاد.

- من أين أنت؟

- الأحواز، وأنت؟

- أصولنا من أفغانستان، لكننا نسكن (طهران) منذ ثمانين سنة تقريباً. هكذا قال أبي.

وقتها سألت الرجل المُقعد الذي كان يستمع لحديثنا عن اسمه.

أجابني:

- أكبر.

سألني (غفار):

- ماذا تعمل؟

- حالياً لا شيء. كنت أعمل في (الأحواز) بمسح السيارات. أما الآن خالي من يتكفل بي وبأمي.

وقتها اعتذرت واستأذنت منهما. انصرفت متجهاً للمنتزه الذي لعبت فيه البارحة مع (رستم). هناك تفاجأت بوجوده. لم أكن أتوقع ذلك! كان ينتظرني والكرة في يده، وبجانبه حقيبة زرقاء صغيرة.

سلمنا على بعضنا، وشرعنا باللعب. بعد ساعة تقريباً، طلب مني أن نستريح، وتوجه نحو حقيبته. أخرج منها كعكاً وعصيراً.

قال لي:

- أمي صنعته لنا، أتمنى أن يعجبك.

اندهشتُ متعجباً. أخبر أهله عني إذاً ولم يوبخوه. ابتسمت له بندم، وعاتبت نفسي، فظني في أهله كان سيئاً. يومها اتضح لي أن اللوحة التي ارتسمت عنهم في خيالي ليست مظلمة كلها. وقتها شربت وأكلت معه بصمت، وشردت أفكر في أمي دون أن أعيَ ذلك. لاحظ شرودي فسألني:

- لمَ أنت صامت؟ بماذا تفكر؟

تجنبت الحديث عن أمي، وطفقت أحدثه عن (أكبر) و(غفار)، ثم عدنا نلعب ثانية، ولما انتهينا، تواعدنا على الالتقاء في اليوم التالي في الزمان والمكان نفسهما.

انصرف عائداً إلى منزله، وتوجهت إلى (أكبر). وجدته جالساً في مكانه وحيداً ينتظرني. (غفار) ذهب يبيع الصحف في مكان آخر. أوصلته إلى مسكنه وعدت إلى البيت متكاسلاً.

وصلتُ فجلست بجانب أمي أحدثها. مسكتُ يمناها وطفقت أقبلها. تأملتها. تئن كثيراً، وتنظر إليَّ بحزن مخيف وغريب، وتتمنى أمامي أن تدفن في (الأحواز). دارت الدنيا بي، وتراءت لي أم (سالم) يوم زرتها وهي تحتضر. ذات الملامح أراها الآن في وجه أمي وبريق العينين نفسه أيضاً.

عاد خالي فجلس بجانبنا كئيباً حائراً. هو الآخر مثلي، لا يدري ماذا يصنع لها؟!

❖❖❖❖❖

21

الرائحة الكريهة

تسكن أسرة تركية في الحي المجاور لمنزل خالي. رجل عجوز يعيش مع ابنه المتزوج حديثاً. مرةٌ وجدته يحمل أغراضاً عدة في يده اليسرى، ويده اليمنى تمسك باكورة يستند عليها. عرضت عليه المساعدة. حملت معه بعض من أغراضه.

ابتسم ودعا لي بالفارسية، وشرع يتعرف عليَّ. عندما عرف أني أحوازي، حدثني بالعربية مبتهجاً. اندهشتُ من ذلك، فأخبرني أنه يملك العديد من الأصدقاء الأحوازيين. منهم تعلم العربية أيام كان شاباً.

في التلفاز الرسمي، تم عرض مشهد تمثيلي يسخر من الأتراك. تحدث عنه الرجل العجوز بحنق. المشهد صور رجل تركي قطن غرفة فندق في (طهران) برفقة ابنه الصغير، فاشتكى من رائحة الحجرة الكريهة، عندها حضر مالك الفندق الفارسي وعابهم قائلاً:

- الرائحة الكريهة تنبعث من فم الطفل لا من الغرفة.

تعالت قهقهاته عالياً وأضاف:

-يبدو أن طفلك ينظف أسنانه بفرشات تنظيف المرحاض، لا بفرشات أسنان.

قال الرجل العجوز لي مغتاظاً:

- يسخرون منا. يشتموننا ثم يعتذرون لنا بسذاجة. يا لوقاحتهم.

وقتها تساقطت دموع من عينيه الصغيرتين القابعتين خلف نظارته ذات العدسات الكبيرة والسميكة. أقلقني. لماذا يبكي؟ سألته حائراً فأجابني بصوت حزين:

- أعدموا أحد أولادي شنقاً أمام ناظري. الملاعين اتهموه بجرم لم يفعله.

تذكرت حبال المشانق التي شاهدتها مع (رسول). ما أقسى أن يشاهد والدٌ ولده وحبل الموت يُلف حول عنقه. ما أتعس اللحظة التي عاشها وهو يرقب ولده وروحه تنزع منه غصباً دون أن يقدر على فعل شيء له.....

لم يتكلم بعدها، وسرت بجانبه صامتاً، خافضاً رأسي أرقب موضع قدمي وأعد خطواتها. أوصلته إلى باب داره، فشكرني ودعا لي بالعربية هذه المرة. ابتسمت له وانصرفت.

❖❖❖❖❖

أتمنى أن أرمي بجسدي وسط بحر،

أغوص حتى أصل أعماقه السحيقة.

أحفر لي حفرة هناك،

وأدفن نفسي فيها مختفياً من هذا العالم البائس الحزين...

22

النهاية

كان وضع أمي يزداد سوءاً في كل ساعة تحياها. صرح لسانها بطلب الموت وتلألأت عيناها الغائرتان شوقاً له. وقف خالي عاجزاً أمام إرادتها، خاصة بعد أن ذهب يعاينها عند الأطباء غصباً عنها، فهم لم يتمكنوا من فعل شيء لها.

خنقني العجز بشدة. أمي تموت ولا أقدر على فعل شيء. صرت اتجنب النظر إلى عينيها المحتضرتين، والمتلألئتين بشعاع من الحنين للموت والمقابر. أخرجُ مبتعداً عن البيت، متجولاً في الشوارع لساعات عدة. أرقب الناس وأتأملهم، فأشعر أني البائس الوحيد في هذا العالم.

كان جلوسي مع (أكبر) و(غفار) يخفف عني بؤسي. لكنهما يختلفان عني. لهما قوة على تحمل جمود الحياة وأساها. أنا ضعيفٌ مقارنة بهما.

يوماً وأنا جالسٌ أتحدث معهما. حضر رجل يجر نفسه ماشياً بتثاقل. ملابسه بالية والتراب يكسو شعر رأسه الكثيف. جلس

بجانبنا للحظة طويلة دون أن يقول شيئاً، ثم شرب ماء من قنينة (غفار) التي لا تفارقه، وانصرف بعدها بخطواته المتثاقلة مبتعداً عنا.

سألتهم بتعجب:

- من هذا؟!

أجابني (غفار) وهو يراقبه بحزن:

- أبي.

قال لي هذا ثم حمل كومة صحفه، وقنينة مائه ولحق بأبيه. راقبتهما حتى اختفيا، حينئذ، قال (أكبر) وهو يرقب اختفائهما مثلي:

- مساكين.

خاطبته:

- يبدو ذلك. أضفت له سائلاً: ماذا بهم؟

أجابني بلسان حزين:

- قبل شهر، قام والد (غفار) بإلصاق إعلانات عدة في شارع (فرهنك حسيني)، يعرض من خلالها إحدى كليتيه للبيع. حتى الآن لم يقبله أحد. يبدو أن سنه هو السبب. لا أحد يريد كلية رجل تجاوز الأربعين من عمره. الديون تراكمت عليه ولا يعرف ماذا

يفعل؟! زوجته مريضة وقد تموت قريباً، مثل ولده (حسان) الذي مات قبل شهر من الآن.

في اليوم التالي، وجدت (أكبر) حزيناً. سألته عن السبب. قال لي:

- والد (غفار) قَتلَ نفسه البارحة.

سألته مصعوقاً:

- ماذا؟ (أضفت) كيف حدث ذلك؟

- وجدوه مشنوقاً خلف مسكنه صباح اليوم.

- من أخبرك بذلك؟

- أصدقاء (غفار) الذين يقطنون بجوارهم، مروا من هنا وأخبروني.

تفكرت في هذا العالم. ما أقسى الحياة فيه! وما أقسى نهاية الإنسان أيضاً! تساءلت بيني وبين نفسي: هل قتل الإنسان لنفسه هو الحل، أم فيه معارضة لمشيئة الله كما يقولون.

قلت لـ(أكبر) بصوت فيه حسرة:

- ضاع أمله. مصيره جهنم الآن.

أجابني بتأمل:

- ربما، لكن بما أن الموت هو نهايته المحتومة، فلماذا لا يموت الآن؟ موقفاً هذا البؤس الذي يقتله كل يوم عند حده. هناك، في السماء، سيكون عند أرحم الراحمين. أعتقد أن الموت أفضل له ولنا أيضاً.

هو أيضاً يريد أن يموت، فلحظتها رأيت في عينيه النظرة ذاتها التي تسكن عينيّ أمي الذابلتين لكن بشوق أقل.

فكرت: أمي هي الأخرى مثل والد (غفار). لكنها اتخذت طريقاً أطول من طريقه. هو أنهى حياته سريعاً مستخدماً الحبل في ذلك. أما هي فاختارت هجرتها ببطء قاسٍ، وكأنها تستلذ هذا البؤس.

أصبحت تلاحق الموت، وصار الموت أيضاً يلاحقها. فصارا يلاحقان بعضهما البعض بشوق عجيب وغريب.

في تلك الساعة، نبض قلبي شوقاً لها. وهَفَتْ روحي إليها بحنين غريب. عدتُ إلى البيت أسير بخطوات سريعة، آنذاك، اندهشتُ من خفقان قلبي الذي كان يتزايد ويتسارع مع كل خطوة أخطوها.

تملكني خوفٌ عجيب. وغمرني إحساسٌ غريب. رفعتُ رأسي أنظر إلى السماء، خُيل إلي أني أرى -بين السحب- صورَ أبي وأختي سكينة، وأخويَّ (حبيب) و(محمد) وخيال أمي بينهم. اتسعتْ عيناي دهشةً مما رأيت. شرعتُ أركضُ ورأسي مرفوعاً. سقطتُ فانتبهت

وصحوتُ من الخيال الذي غمرني. نظرتُ إلى السماء ثانية. لم أرَ شيئاً. فقط السحب تسير ببطء دون توقف. أكملتُ ركضي وعيناي ممتلأتان بدموع قاومت نفسي حتى لا تغلبني فتتسلل دموع عينيَّ للخارج. كسا الوهن روحي بشدة فضعفتُ مستسلماً وأجهشتُ بالبكاء مطلقاً لدموعي حريتها، وتعجبت من روحي ومما أصابها أكثر وأكثر. عندما وصلت وجدتُ باب منزل خالي مفتوحا، وابنتاه بجانب الباب، تقفان مرعوبتين، وكأنهما شاهدا شبحاً.

أسرعتُ الخطى للداخل. مرت من أمامي زوجة خالي تبكي بهدوء، واتجهت نحو غرفتها على عجل. توجهتُ إلى أمي مفزوعاً وقدماي ترتعشان خوفاً ورعباً. هناك وجدتُ لحافاً زهرياً يغطيها بالكامل، وخالي بجانبها يبكي. يبكي أمي التي رحلت وتركتني....



يا رب .. يا رب
خذني إلى أسفل السافلين، شريطة أن لا
أجد عربياً هناك..
أنا لست بحاجة لجنة الفردوس، لأني وليد الحب..
فجنة حور العين والغلمان هدية للعرب..

كان هذا اقتباس من إحدى قصائد الشاعر الفارسي مصطفى بادكوبيه (شاعر إيران العظيم كما يلقبونه) لذلك يجب ان يعلم القارئ الكريم أن رواية (الهجرة إلى المقابر) لم تنسجها خيوط من الخيال، وأن سجاد (بطل روايتنا) ليس شخصية وهمية، والأحداث التي عاشها وعايشها ليست أضغاث أحلام. ومايحدث لعرب إيران ليس كابوس موحش ولا سراب، وإنما واقع وثقه البؤس والشقاء، وخطته دماء الأبرياء، ولفته البشاعة بصرخات مجروحة إنبعثت من حناجر أجسام أخفتها زنازين جهنمية، وطوقتها حبال مشانق غليظة، ثم أخفتها مقابر وصفت بالملعونة.

ورغم أن أساس الرواية تم نسجه ليحكي عن عرب إيران، إلا أنها تحمل في داخلها الكثير من السطور والصفحات التي وثقت أيضاً بؤس وشقاء الأعراق غير الفارسية من (كرد وبلوش وأتراك)، التي تقع ضمن مايسمى في يومنا هذا بالجمهورية الإسلامية الإيرانية.

رواية
Rewayah